

سعد الله ونوس

طقوس الاشارات والتحوّلات

مسرحية

دار الآداب - بيروت 

WWW.akhawia.net

ملاحظة

في الجزء الأول من مذكراته، أورد المجاهد فخري البارودي حكاية صغيرة، روى فيها كيف استعزَّ الخلاف بين مفتي الشام ونقيب الأشراف فيها أيام الوالي راشد-ناشد باشا. وكيف تجاوز المفتي الخلاف الشخصي، ومدَّ يد العون للنقيب حين أوقع به قائد الدرك آنذاك، وقبض عليه وهو يقصف مع خليعة له.

هذه الحكاية هي النواة التي بنيت عليها هذه المسرحية، واستقيت منها معظم شخصياتها، وإن افرقت عن البارودي في التأويل والمغزى.

* ولعل من الضروري أن أشير إلى أن المكان، وهو دمشق، والزمان، وهو النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ليسا إلا مكاناً وزماناً اصطلاحيين في هذه المسرحية. فلم يكن همي أن أقدم عملاً عن البيئة أو أن أقارب الحقائق الاجتماعية والتاريخية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

* ويقال نفس الشيء عن مناصب الشخصيات. فهي ليست مقصودة بذاتها، وإنما باعتبارها مكونات ثقافية ونفسية للشخصيات.

إن أبطال هذا العمل هم ذوات فردية تعصف بها الأهواء والنوازع، وترهقها الخيارات. وسيكون سوء فهم كبير إذا لم تُقرأ هذه الشخصيات

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الخنزير - بناية بيهم

ص.ب. 4123-11

بيروت - لبنان

هاتف: 861633 (01) - 861632 (03)

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

من خلال تفردھا وكثافة عواملھا الداخلية، وليس كرموز تبسّطية لمؤسسات تمثّلھا. إن أبطال هذه المسرحية ليسوا رموزاً ولا يمثلون مؤسسات وظيفية بل هم أفراد لهم ذواتهم ومعاناتهم المتفردة والشخصية.

* ومن نافل القول التويه بأن ما أتوخاه من هذا العمل، سواء نجحت أم أخفقت، هو إثارة أسئلة ومشكلات أعتقد أنها راهنة، ومتجددة أيضاً.

الجزء الأول المكائد

المشهد الأول

[بستان في غوطة دمشق. شجرة مشمش مثقلة بالأزهار البيضاء. بسط مفروشة على الأرض، وفرش وثيرة، ووسائد صغيرة ملونة. عبد الله حمزة، نقيب الأشراف والغانية وردة، وهي خلية عبد الله. مجلس لهو ومجون. بينهما طبق كبير عليه أصناف من المازة والمشروبات. وبعيداً عنهما قليلاً ينهمك الخادم حارم، والخادمة بسمة في الشواء، وتحضير الطعام. وردة تمسك عوداً وتلاعب أوتاره].

: (تغني بصوت ناعم يوشيه المجون)

وردة

وإن كان قصدك بالغرّة

أنا مالي رايحة برة

لنيمك على السرّة

وعلمك شغل الهوى

يانور العين..

وإن كان قصدك بنهودي

قم هات الدربةكة والعودي

لنيمك على زنودي

وعلمك شغل الهوى

ياعين.. ياعين..

وردة : الوجاهة خانقة يا عبودتي .. (تضحك وردة، ويتضحك الخادمان خفية) والله إنه أليق وهو مقلوب. (تقترب منه، وتدغدغه في خاصرته، فينط في مجلسه، وهو يضحك ضحكاً هستيرياً) ما هذا الخصر الوافر!..! (وتدغدغه) ما هذا الإبط العاطر!..!

عبد الله : (كاغخوق وسط الضحك والتشي) لا.. لا.. تقتليني.. سأموت.. أرجوك، لا أحتمل الدغدغة.. يكفي.. يكفي.

[تساعده في خلع الرداء، وتسحبه من رأسه، فيتنفس بارتياح وعيناه تدمعان من الضحك].

عبد الله : يخرب شيطانك.. كدت أموت.. لا أحتمل الدغدغة.. والآن هاتي حقي.

[يضعها في حضنه، وينغمر في عناقها]

وردة : (وهي تفلت منه بدلال) أخذت حقك وزيادة.

عبد الله : لا تبخلي على الظمان.

وردة : لكل شيء أوان.

عبد الله : طيب.. جاء دوري. (يصفق متمائلاً ويغني) وسروال ورد ياورد

وردة : لا يطلع القمر في النهار.

عبد الله : (وهو يجرع كأسه) اليوم ستطلع النجوم والقمر في عز النهار.

وردة : اسقني إذن. (يملاً قدحها بالعرق ويرأشه بالماء، ثم يرفعه إلى شفيتها، فترشف منه رشقة نهمة) أين الدربكة؟.

عبد الله : (صائحاً للخادم) سخّن الدربكة، وهاتها.

وإن كان قصدك بجسمي
قم هات لي بدلة على كسمي
لنيمك على جسمي
وعلمك لعب الهوى
يانور العين..

عبد الله : يا محمد.. مدد، مدد.

وردة : (تجيه متصنعة الدلال، وتواصل النقر على العود). روح يامسكين.. خدودي تفاح الشام

عبد الله : مدد، مدد.

وردة : روح يامسكين.. صدري عاج وorman

عبد الله : أحي الظمان، واعطيني بوسة. (يمد لها كأس العرق) خذها، واسقنيها من فمك.

وردة : ارفع هذا الحاجز أولاً.

عبد الله : أي حاجز يا حبة القلب!..!

وردة : حاجز الهيبة والوجاهة (وتغني بمجون) صدرية عبد ياعبد

عبد الله : تريدن أن أخلع الصدرية! حاضر [يخلع صدريته]

وردة : ومتيان عبد ياعبد.

عبد الله : وهذا هو المتيان.

وردة : ومحزم عبد ياعبد.

عبد الله : ونفك المحزم، لا حزمنا الله بغم أو هم.

وردة : قمباز عبد ياعبد

عبد الله : وهذا هو القمباز. (يرفع القمباز بحركة مخمورة، فيعلق في رأسه، يصرخ) خلصيني من هذا الملعون..

[وردة، تتاول محزم عبد الله من الثياب المبعثرة].

عبد الله : انتظري.. سأعقده لك بنفسى. (ينهض مترنحاً، ويحاول أن يربط المحزم. يطبطب على كفلها) يا تمارق الجنة.. ماعاش من لم يتوسد مثلها.

وردة : أين العمامة الخضراء!

عبد الله : إنها علامتى ياوردة..

وردة : سأضع علامتك على رأسى، وأزّين بها رقصى.

عبد الله : ضعيها أتى شئت. سأقول لك أمراً جاداً ياوردة. عبد الله لا يقبل أن يشاطره أحد الماء الذي يحييه. لو علمت أن رجلاً آخر يمسّ هذه الكنوز..

وردة : وماذا يفعل رجلى الغيور إذا مسّ رجل آخر هذه الكنوز!

عبد الله : ماذا أفعل..! ستبرق الدنيا، وترعد. أجل.. ضعيها حلقاً في أذنك. ستبرق الدنيا، وترعد.

وردة : ما ألك! أتمنى أن أراك تبرق، وترعد. يا حبوبى الغشيم، المرأة التي تعرف عبد الله، لا يبقى لها غرض بالرجال.

عبد الله : الله أكبر.. تعالي (ينحنى، ويستند يديه على الأرض، يقف على أربعة) تعالي.. اركبي فوق ظهري.. افعلى بي ما تشائين. (تركب وردة على ظهره وهي تضحك) ياالله.. ما أخفك. حرير دانىء يسترخى على ظهري. الكزيني كى أشعر أنك جسد لا غيمة.

[يأتى الخادم حاملاً الدريكة، وهو يجهد في إخفاء ضحكه].

الخادم : الدريكة جاهزة ياسيدي.

عبد الله : هل سخّنتها جيداً!

الخادم : نعم..

عبد الله : أسرع بالشواء.

[يجلس عبد الله، يحتسى كأسه بجرعة واحدة، يضع الدريكة في حضنه، يجزّبها بنقرات خفيفة، ثم يضبط الإيقاع حتى يغدو راقصاً. تبدأ وردة بالرقص، وبين الحين والحين تقترب منه وتحنى رأسها إلى الخلف باتجاهه، وكلما سقطت العمامة، أعادها إلى رأسها. ثم يستخفّه الطرب، فينهض وهو مستمر بالنقر على الدريكة، ويتلوى أمامها. تطوّق إلتيه بمبدلها، وتبدأ بتوجيه حركاته في جو مفعم بالضحك والنشوة والسكر. فجأة يقتحم المكان عزت بيك، قائد الدرك ومعه عدد من رجال الدرك. يصاب عبد الله ووردة بالذهول، يجمدان، وتدور عيونهما].

عزت : يا سلام.. ياسلام. أنس وطرب وغرام.

عبد الله : ماهذا! إني فى بستانى. كيف تدخلون دون إذن أو دستور!

عزت : الحكومة لا تحتاج إلى إذن أو دستور.

عبد الله : وأنا.. ألا تعرف من أنا..!

[تحاول وردة أن تلملم نفسها، ترفع العمامة عن رأسها].

عزت : لا ياخاتم.. دعيها على رأسك. يبدو أن السيد عبد الله أهداك نقابة الأشراف، وعليك أن تقبلي الهدية.

عبد الله : ماذا حدث! هل تغير الوالى! هل تغير السلطان!

عزت : ورأس أمى لم يتغير السلطان الأعظم، ولم يتغير الوالى.

عزت : وستدخل دمشق في عراضة مهيبه. (للدرك) هاتوا بغلة السيد.

عبد الله : (ينهار) لا.. أرجوك يا عزت بيك. لا يمكن أن تفعل ذلك بي. (بصوت هامس) اسمع.. سلفني هذا المعروف، ولن أبخل عليك.

عزت : منذ قليل كنت تهددني، والآن ترشونني!

وردة : (تنحني على الأرض) أبوس رجلك، استرنا.

عبد الله : أرجوك. جئنا هذه الفضيحة. وأنا أصدقك النصيحة. لا تضع يدك بيد ذلك الثعبان، ولا تأمن له. سيلدغك في أول فرصة. وإن زين لك التدخل في عداوتنا بالمال، فإن الجميع يعرفون أن يدي مبسوطة، وأني سأعطيك أضعافاً.

عزت : لا أعرف عما تتكلم! ولا تهمني عداوتك مع المفتي في شيء. واجبي أن ألاحق ما يخالف الشرع والقانون، وأنا الآن أقوم بواجبي لا أكثر.

وردة : (وهي تنهه بالبكاء) عبد الله له مركز ومقام. خذوني، واتركوه. أنا بنت الخطأ، فخذوني ومالكم عليه شيء.

عزت : الخاتم عاشقة. إنك محظوظ مع الغواني يا عبد الله. (يحضر الخادم البغلة) يا الله.. أركبوه، واردفوا خليلته وراءه.

عبد الله : أتأخذني بهذه الثياب!

عزت : آخذك كما وجدتك.

عبد الله : (متوسلاً) أعطيك ماتشاء، وأشفق علينا.

عزت : يا الله.. فليتحرك الموكب.

عبد الله : (يغضب ويزيد فيما يتحرك الموكب) سترى.. إنك

عبد الله : إذن.. كيف تجرؤ! ألا تعرف من أنا! إنني نقيب الأشراف.

عزت : لا أرى أمامي إلا نقيب الكيف والزني. (للدرك) انظروا.. أتتصرفون على نقيب الأشراف في هذه القيافة! تعالي ياخانم.. ستتابع نزوات السيد عبد الله ومجونه. ارتدي الثياب، وأكلمي هيئتك.

وردة : (محرجة) يايبك.. استر، سترك الله.

عبد الله : إنك تتجاوز كل الحدود يا عزت بيك.

عزت : وأنت.. ألم تتجاوز الحدود! تعالي، ونفذي الأمر.

وردة : أرجوك..

عزت : قلت تعالي.. وماهملك أنت! ستفرج عليك الشام، وأنت تتبخرين بثياب النقيب.

[يجزها، ويجبرها على ارتداء ملابس النقيب].

عبد الله : هل جنتت! هل تعرف عاقبة ماتفعل! إنك تهين كل الأشراف. إنك تشعل فتنة في المدينة.

عزت : ماذا تعلق! هل تهدد الحكومة! سترى إن كان الأشراف يحامون السكر والفسق والفجور. ياخانم.. أنت جميلة بهذا الزي. إنه يليق بك أكثر منه.

عبد الله : أعرف أن هذا تديير المفتي. إنك تورط نفسك يا عزت بيك في أمر لا يعينك. هذه غلطة فاحشة، ستدفع ثمنها غالياً، أنت وذلك الثعبان الأرقط.

عزت : عندما يتبخّر العرق من رأسك، ستعرف من الذي ارتكب الفواحش والأخطاء. (إلى الدركي) ضع القيد في يده.

عبد الله : أتقيدني أيضاً!

تضع يدك في نار ستحرقك.. هذا الخطأ سيدمرك
أكثر مني.. سنرى كيف تواجه غضب الأشراف،
وأعواني.. إنك تشعل حريقاً.. إنك تشعل ثورة..
[يبتعد الموكب. قائد الدرك ورجاله يركبون خيولاً،
ووسطهم عبد الله على ظهر البغلة مقيداً، ووراءه وردة
بشباب نقيب الأشراف].

الخادم : (دامع العينين) يا حيف.. دالت دولة النقيب.

الخادمة : هل تعني أننا لن نتزوج!

الخادم : اتركني تصاريف الأيام، تقرر أمرنا.

الخادمة : يعني أنك تتراجع!

الخادم : لا أتراجع، ولكن بعدما جرى..

الخادمة : وما همنا بما جرى!

الخادم : حقاً.. وما همنا. على الأقل، سنأكل اليوم حتى
التخمة، ثم.. انظري.. مازال الفراش ممدوداً
(يحضنها، ويختلس قبلة).

الخادمة : (تفلت راکضة) لا.. ابعد عني.

الخادم : (يجري وراءها، وهو يندندن)

إن كان قصدك بنهودي

قم هات الدريكة والعودي

[تتلاشى الإضاءة].

المشهد الثاني

[إيوان الضيوف في بيت المفتي محمد قاسم المرادي.
المفتي محمد قاسم المرادي ولديه ضيفان من الأعيان
حميد العجلوني وابراهيم دقاق الدودة].

ابراهيم : هذه العداوة بينك وبين النقيب قسمت البلد،
وأتعبت الناس.

حميد : والله يا شيخ.. أثرت على تجارتنا، ومصالحنا. فالذين
يقفون مع النقيب، لا يشترون إبرة من التجار
المحسوبين عليك. والحمد لله، مؤيدوك هم الأكثر.
ولكن الحزازات بلغت حد الضغائن.

المفتي : وهل يسعدني هذا الوضع! ما نتحدثان عنه يسبب لي
الكمد والحسرة. كنا دائماً كالأسرة الواحدة،
متحايين، متضامنين، لا يدخل بيننا غريب، حتى
اختاروا هذا النقيب، الذي لا يملك من المؤهلات إلا
أدناها. لم نقل شيئاً. اختاروه نقيباً، ليكن. قلنا خير
وبركة. ولكن هو الذي بادر بالعداوة، وتطاول على
مقامي.

ابراهيم : إنما نتحدث إليك، لأنك الماعون الكبير. والماعون
الكبير يجب أن يسع الصغير.

المفتي : بذلت جهدي، وما أزال. تفاضيت عن الكثير من
مضايقاته. وسكت عن خفته، وتجاوزاته. لم يدع

سيلاً للوفاق إلا وسده. ولو شئت أن أتحدث عما بذلت من جهد، لما كفاني النهار بطوله. ومع هذا قولاً لي، ماذا أفعل؟ إن كان لدى أي واحد من الأشراف والأعيان حل لهذا الخلاف، فإني سأتعاون، وأستجيب.

حميد : بارك الله فيك يا شيخ. هذا ظننا فيك، ومثلك لا يخيّب الظن.

المفتي : أستغفر الله.. إن مصلحة البلد أغلى علي من نفسي. [يدخل زلة المفتي. عبدو الدكّاك ووراءه يتدافع رجلان من العامة هما العفصة وعباس السروجي. يحاول عبدو الكلام لكنهما يسبقانه].

العفصة : البشارة لك يا مفتينا. والحلاوة لنا.

عباس : رأيت دمشق اليوم ما لا يخطر على البال ولو في الخيال.

العفصة : رأينا عدوك مقيداً وعارياً إلا من الملابس التحتية. وقبحته تضع على رأسها عمامة النقيب، وترتدي ثيابه.

المفتي : ماذا تخرفان؟

العفصة : نقول لك ما رأينا. أركبهما عزت بيك على بغلة، وساقهما في الحواري والأزقة، والناس تفرج.

عباس : عجبت الناس وحوقلت، وانها على عدوك الصغير والبصاق واللعنات.

العفصة : وهما الآن في السجن يتابعان الوصال، والذي منه..

المفتي : (غاضباً) اخرس.. قطع الله لسانك ولسانه.

العفصة : أهذه بشارتنا! ألا يسعدك أن يقع عدوك هذه الوقعة! قامت دمشق، ولم تقعد. وما سمعته منا سيخبرك به الكثيرون. ولكننا أسرعنا كي نفرح قلبك، ونحصل على الحلاوة.

المفتي : (ينظر إلى عبدو بغضب) كيف سمحت لهما! كيف دخلاً!

عبدو : جاء راكضين، وقالاً إنهما يحملان لك خبراً عاجلاً وساراً.

المفتي : أهذا خير سارا! أيسرّكم أن تهين مرتزقة الدرك أشرافكم! أن يُبرِّعَ الأسياد والأكابر في الوحل! وكيف يتجرأ الواحد منكم على تناول نقيب الأشراف بهذه اللغة البذيئة، والخالية من كل توقير! عباس : يا سيدي..؟. هذا ما رأيناه.

العفصة : وكنا نظن أنك ستفرح حين تعرف الوكسة التي حلّت بعدوك.

المفتي : ليس نقيب الأشراف بالعدو. ربما كانت هناك خلافات في الاجتهاد والرأي، ولكن هذه الخلافات ليست عداوة. إن عدونا الآن، عدوي وعدوّ الأشراف وعدوّكم أيضاً، هم هؤلاء الذين يحاولون الحطّ من كباركم، وإهانة أشرافكم. إنهم يريدون أن ينكسوا رؤوسنا جميعاً، وأن يجعلوا الصغار يتطاولون على الكبار، والأوغاد على الأشراف. فهل يرضيكم ذلك؟

العفصة : ما ذنبنا إذا كان النقيب هو الذي أرخص نفسه!

المفتي : اخرس.. ولا أريد أن يلغو أحد بهذه القصة. اذهباً،

وأخبرنا عن لسانني. لا أريد لفظاً في المدينة. وكل من يلغو بسيرة النقيب، سيكون حسابه معي.

العفصة : إذن، لا حلاوة يا شيخنا!

المفتي : (إلى عبدو) أخرجهما فوراً. والويل لمن يخوض في هذه القصة.

[يدفع عبدو الرجلين بفضافة، ويخرجان].

حميد : (مندفعاً) دعني أتبرك فيك. (يتناول يده، ويقبلها).

المفتي : أستغفر الله.. أستغفر الله.

حميد : في مثل هذه المواقف، تعرف معادن الرجال. ما بدر منك أمامنا، زادك علواً وسمواً.

المفتي : كل امرئ يعمل بأصله، ولا أدري الآن، بعدما سمعنا ما حدث، إن كنتما تجدان في جفائي للنقيب تجنياً أو تنافساً. هل يحقُّ لنقيب الأشراف أن يتصرف بمقامه ومنصبه بمثل هذا الطيش الأرعن!

ابراهيم : لا والله. إذا صحَّ ما سمعناه، فإن هذا السلوك يشين الزعر، والعوام من الناس.

المفتي : وما يفعله واحد في مقامه، لا يسيء إلى نفسه فقط، بل يسيء إلى المقام ذاته وإلى كل المقامات. إنه يسيء إلينا جميعاً. ولا أعرف كيف يمكن أن يوقر الناس بعد اليوم نقابة الأشراف، أو سواها من المناصب. إنه يضيع هيبتنا، ويجعلنا مضغّة في أفواه الرعاع والسوقة.

حميد : وماذا تقترح يا مفتينا؟

المفتي : وماذا أقترح..! هو يخرأ، وعلينا نحن أن نسمح خراؤه. لا ينبغي أن تفوح هذه الرائحة بين العامة في المدينة.

أذهبنا الآن، واطلبنا من الأشراف أن يوافوني في بيتي هذا المساء. عليهم أن يوحّدوا كلمتهم معي، وأن يساعدوني كي نجد تدييراً، ينقذ شرفهم، بل وشرفنا جميعاً.

حميد : بارك الله فيك يا شيخ. سنتقصي الأمر، ونذهب إليهم حالاً.

ابراهيم : لن ينسوا لك هذه البادرة أبداً.

المفتي : المهم أن تصفو القلوب، وأن يهدينا الله إلى تديير مفيد.

[يحيي حميد وابراهيم الشيخ، ويخرجان]

المفتي : هذا فصل الختام يا عبد الله. وأعدك أن يكون فصلاً داوياً ومثيراً. [يدخل عبدو].

عبدو : لقد قسوت على عباس والعفصة ياسيدي.

المفتي : ماذا كان بوسعني أن أفعل ! أن أقسو عليهما خير من أن يقال، أبدى المفتي ارتياحاً وشماتة.

عبدو : على كل، حاولت أن أطيب خاطرهما.

المفتي : حسناً فعلت. ولكن تبه عليهما وعلى جميع الرجال من أنصارنا ألا يتجاوزوا الحدود، وألا ينسوا أن للمراكز حرمتها. إياهم أن يظنوا أن الفرصة سانحة، كي يتخطوا المراتب، ويلطخوا بيداءاتهم الأشراف والأكابر.

عبدو : والله، هذا ماقلته لعباس والعفصة، وبعدهما جاء كثيرون، يريدون أن يزفوا لك البشرى، فنهرتهم، ولم أسمح لهم بالدخول.

المفتي : [يسمع طرق على الباب]
 المفتي : انظر من في الباب.
 [يخرج عبده مسرعاً، ثم يعود وهو يرحب بعزت بيك].
 عزت : السلام عليكم ياشيخ.
 المفتي : أهلاً وسهلاً. شرفت يا عزت بيك.
 عزت : أخيراً.. أوقعته لك كالطريدة المبعوثة.
 المفتي : هل أوقعته لي يا عزت بيك!
 عزت : لي ولك إذا شئت
 المفتي : لا.. لا تدرجني في هذه القصة. وصيدك اليوم سيثير من المتاعب أكثر مما يحل.
 عزت : ماذا!.. هل تنفض يدك!..
 المفتي : وما دخل يدي، حتى أنفضها!
 عزت : من أبلغنا عن السيران إذن!
 المفتي : وما أدراني!
 عزت : إنه واحد من رجالك.
 المفتي : من رجالي!.. أعتقد أنك مخطيء يا عزت بيك.
 عزت : ومن يكون العفصة إذن!..
 المفتي : العفصة! إنك تظلم رجالي إن اعتبرته واحداً منهم.
 منذ قليل، جاء يشرني بفضيحة النقيب، فطرده من بيتي. إن العفصة ضبع مقابر يعتاش من الوشايات والفتن والنمائم، ولا يمكن أن أضم واحداً مثله إلى رجالي وأعواني.
 عزت : دعني أفهم يامفتينا. هل تريد أن تتصل من الأمر!
 هل انتهت العداوة بينك وبين النقيب!..

المفتي : كنت أحسبك أكثر حصافة يا عزت بيك. أتعرف ماذا فعلت!.. لقد رميت الطفل مع ماء الغسيل.
 عزت : ورأس أمي.. لا أعرف ماذا تعني!
 المفتي : أعني أنك غاليت، وتجاوزت في الصيد حدود المعقول. كان يكفي أن يشعر بالخزي أمامك. أما أن تخزيه أمام عامة الناس، وتحقر نقابة الأشراف، فهذا غلّ واستهتار.
 عزت : يا للعجب.. بدلاً من الشكر، أراك تنقلب علي.. مالذي تغير حتى تدافع عنه!
 المفتي : لم أنقلب عليك، ولا تظن أنني أدافع عنه. المسألة هي أن النظام في هذه المدينة يرتكز على مراتب وتوازنات. وما يضبط كل شيء هو عدد من المناصب التي ينبغي أن تحفظ حرمتها، وتُصان هيبتها. كما أن هيئة الدولة واحدة ومتضافرة، فكذلك الحال في مدينة الشام. اسمع.. لو أهان أحد مناصب الوالي، ألا تصيب الإهانة الصدر الأعظم والباب العالي وكل الدولة!..
 عزت : لا أفهم شيئاً مما تقول، ولا أعرف كيف يمكن أن تصيبك إهانة، لحقت بعدوك اللدود.
 المفتي : نعم.. إن الرجل عدوي، ولكن نقابة الأشراف مرتبة تسند مرتبتي، وهيبتها تعزز هيبتتي. حين وضعت العمامة الخضراء علي رأس قحبة، أهنت الأشراف، وأهنت عمامتي أيضاً. ومن يعامل نقيب الأشراف بهذا الاستخفاف، قد يعامل المفتي لدى أول خلاف بالاستخفاف ذاته.

عزت : ألقمني أورادك بالملقعة يا حاضرة المفتي. ماذا تريد أن تقول؟

المفتي : أردت أن أشرح لك أن الموقف معقد. سامحك الله.. لو شاورتني في الأمر!

عزت : ظننت أنك تعلم، وأن الأمر لا يحتاج إلى مشاور. مالذي يعجبك!

المفتي : إن إفراطك في الإهانة نغص علينا الفرحة. ماذا فعلت إذا غضب الأشراف، وأثاروا هياج العامة.

عزت : ولماذا يغضب الأشراف! هل رميته بتهمة باطلة! ألم أقبض عليه متلبساً بالفسق والسكر والعريضة!

المفتي : الفسق والسكر والعريضة، وأنت سيد العارفين، ليست أموراً نادرة في مدينتنا. والسلطات تعودت أن تغض الطرف، إلا في حالات الأذى العام، أو حين يكون في رأسها موال.

عزت : وضّح لي، وأفدني. هل نحن حليفان أم لا؟

المفتي : نحن حليفان.. بالتأكيد نحن حليفان.

عزت : علام إذن هذا اللوم، والتقريع! كنت أتوقع أن تحتفي بي، وأن نحفل معا.

المفتي : تعبيرني عن الحفاوة سيسبقك إلى البيت. والاحتفال سيكون له وقته، ولكن أرجو أن تفهمني. إذا تعقد الموقف، قد أجبر على التظاهر والمسايرة.

عزت : أتف معهم ضدي!

المفتي : وهل يعقل أن أقف ضدك! لا.. لن ينالك مني إلا كل خير. وإذا اضطررت لاتخاذ بعض الخطوات، فلا

تقلق. أنا أدري بأهل الشام منك. فدعني أصرف الأمور إذا تعقدت.

عزت : أنا الحكومة يا حاضرة المفتي، والقرار في النهاية لي.

المفتي : أعرف.. أعرف.. ولكن هل تحتاج الحكومة الآن إلى شغب، ووجع رأس. قلت لك، اطمئن.. ودعني أصرف الأمور.

عزت : ليكن.. ولكن أرجو أن تراعي ما بيننا. ولا أعتقد أنه سيكون مفيداً، أن يدبّ بيننا الخلاف.

المفتي : معاذ الله أن يكون بيننا خلاف.

عزت : هذا أمني.. سأعود الآن إلى الخبير، وأتابع ما يجري.

المفتي : الهدية تسبقك إلى البيت، والاحتفال سيأتي وقته.

عزت : وقر على نفسك يا شيخ. ما جمعت كي أتقاضى الثمن.

المفتي : يا عيب الثوم.. بين الأصدقاء لا يحكى عن الثمن.

عزت : (وهو يخرج) سنرى..

المفتي : لم أبدد شكوكه، ولكن ماذا أفعل!..! يا عبدو.. يا عبدو..

[يدخل عبدو مهرولاً].

عبدو : حاضر.

المفتي : اسمع يا عبدو.. سأكلفك بمهمة دقيقة. هل استرضيت العفصة وعباس كما يجب؟

عبدو : نعم.. حاولت وسعي.

المفتي : طيب.. تذهب الآن إلى مدير السجن، وتقول له، حين يهبط الليل، وتعتّم العين، سنبدّل المرأة المسجونة

مع تقيب الأشراف. وقل له، إذا عارض أو تردد، اعتبر نفسك بين الأموات.

- عبدو : لن يجروا على الإعتراض.
المفتي : لو مانع، سيهدر دمه، ويضيع. وأوصيك بالكتمان.
يجب أن يظل السر مصوناً بيننا.
عبدو : لا توص حريصاً.
المفتي : اذهب إذن، وعد سريعاً بالجواب.
[يخرج عبdo، وتلاشى الإضاءة].

المشهد الثالث

[في مرجة متزوية على ضفة بردى. مفرش على العشب. العفصة وعباس يشربان، وبينهما بعض الأظعمة].

- العفصة : هذا المفتي غميق.. يا لطيف.. إنه غميق جداً.
[يتناول عباس كأسه، ويحتسي جرعة كبيرة مشيحاً بوجهه، يبدو عليه الحزد والانتزاع].
العفصة : أي أخي أبا الفهد.. لا تكن غضوباً.
عباس : إني غاضب. لا أستطيع أن أنسى الطاسة الباردة التي سكبها على رأسي.
العفصة : سكب علينا ماءً بارداً من جهة، وغمز عبdo من جهة ثانية. لولا أن المفتي أمره، لما تجرأ عبdo على ملاطفتنا، وتطبيب خواطرننا. كم توصل إلينا، كي نزرعها بذقته! وكم أكد لنا، أن المفتي محكوم بظرفه! كانت محضورة يأبأ الفهد، وكان مجبوراً على التظاهر بالغضب. إن مفتينا غميق جداً. ومظهره لا يكشف مخبره. إن الخبير ماقاله عبdo، لا ما قاله المفتي.
عباس : اسمع.. سمعت هذه السيرة. وأنا رجل صريح، ولا أعرف التعامل مع الخبير والمظهر.
العفصة : وما العمل! نحن رجاله، وعلينا أن نسلم أمورنا له.
عباس : أنا.. لا أسلم أمري إلا لهذا الدبوس، وهذا الخنجر.

عباس : فضّ هذه السيرة، ودعنا نشرب. أريد أن أعبىء مخي.

العفصة : (وهو يصبّ في الكأسين) هذا هو الكلام.

عباس : (وهو يرفع كأسه) نخب الطرخون!

العفصة : (ضاحكاً) ولماذا الطرخون!

عباس : خائن ياطرخون. تزرعه في مكان، وينبت في مكان آخر. قلت نخب الطرخون، وستشرب نخب الطرخون.

العفصة : (يرفع كأسه) نخب الطرخون يا أبا الفهد.

عباس : نخب الطرخون.

[يكرعان كأسيهما].

العفصة : يخطر ببالي أن اليوم مناسب، كي نذلّ أبا رياح.

عباس : هل تريد أن تذلّه!

العفصة : نعم.. واليوم، ستكون شوكته مكسورة، بعد تجريس النقيب وسجنه.

عباس : منازلة الجريح خطيرة.

العفصة : ونحن لها.

[يظهر سمس وهو يجتاز البستان وراءهم وسمسم، شاب مختّ، يمشي مشية خليعة].

عباس : انظر من يأتي.

العفصة : (يراه، فتغير ملامحه بحدة) لا تدعه يقترب من مجلسنا.

عباس : دعنا نتسلّى قليلاً. ما وراءك ياسوس؟ هل ضيّعت الحبيب!

العفصة : مالنا ياأبا الفهد.. بدأنا نغلط. آنت الوحيد الذي يحمل دبوساً وخنجرًا!

عباس : لم أقل ذلك.

العفصة : الرجال، لا يغيّرون ولاءهم كل يوم. ونحن، شئنا أم أئينا، محسوبون على المفتي.

عباس : إن الإهانة تقف في زوري.

العفصة : طيب.. كاسك. (يرفع كأسه، ويدقها بكأس عباس) سأقول لك مثل عبدو. لّفها وازرعها بذقتي.

عباس : لا أدري.. أحياناً أتساءل، مالنا وهذا كله!

العفصة : إنك صافٍ يا أبا الفهد، وبسيط أيضاً. أليس عيشنا من هذا كله! إن القبضاي مثلنا، يلزم أن يكون له مع الشجاعة ظهر ووجاهة. والذي يوفّر الظهر والوجاهة، هو رجل كبير مثل المفتي، تنصره وتقضي حاجاته، فيقاسمك شيئاً من نفوذه وماله. (يرفع كأسه) اشرب أخي أبا الفهد.. اشرب.

عباس : (وهو يرفع كأسه) أخي.. هذا طبيعي. أحب أن يكون كل شيء مستقيماً. إن نفسي تعاف اللف والدوران، أو التلبسة.

العفصة : لا تؤاخذني يا أبا الفهد. أنت أكبر مني، ولكن يبدو أن الحياة عركنتني أكثر منك. شغل الكبار، كله لّف ودوران. والمفتي يفتل البلد على أصابعه، بالسياسة والتلبسة. وهذا فن، مثل فن الكراكوزاتي، لا يحسنه إلا أهل الكار. والأبرع هو الذي يكسب. كيف سقط النقيب هذه السقطة! لم يسقط إلا بالتدبير، والتلبسة.

سمسم : (ملفتاً، بعد تردد قصير) كيف أضيّع الحبيب، وهو يكلمني.
عباس : ومن الحبيب! تعال.. اقرب.
العفصة : لا.. لا يصح. هذا نجاسة. إنك تدنّس مجلسنا يا أبا الفهد.
عباس : مابالك! من يسمعك يظن أن مجلسنا في صحن الكعبة. أحب أن أناغشه قليلاً.
سمسم : (متردداً) هل دعوتني فعلاً!
عباس : تعال.. هل أنت خائف!
سمسم : (وهو يقترب) خائف..! فرطت أحشائي من الفرح. [يتخذ العفصة هيئة خردة، ويميل في جلسته عنهما].
عباس : خذ.. اشرب حليب السباع.
سمسم : أنا قتيل هذه الشوارب. بغيتي حلييك دون كل السباع.
عباس : يبدو أنها هائجة عليك.
سمسم : آخ ياأبا الفهد.. ولا يشفيها إلا ضربة من خنجرك. أتذكر تلك المرة اليتيمة! والله.. كأنك سللت روعي من بدني.
عباس : لا ياسوس. الأصول، أن تراعي الحاضرين، وتوزع المحبة عليهم بالعدل.
سمسم : اتركها مستورة ياأبا الفهد.
العفصة : (غاضباً) امش من هنا. لا أريدك في حضرتي.
سمسم : أنا في حماك ياأبا الفهد.
العفصة : (يسحب خنجره) قلت امش وإلا جعلت جسمك غربالاً.
سمسم : (يتراجع خلف أبي الفهد مذعوراً) ولماذا تتبلاّني! هل تكلمت أو كشفت سرّاً!
العفصة : (وهو يهب منتفضاً) إي.. سأكشف أمعاءك، يا قحبة المقابر.
عباس : (ينهض بدوره ملوّحاً بالدبوس) مالمقصّة! ماذا أصابك يا عفصّة!
العفصة : سأبعج بطنه.
عباس : (محتداً) لن تبعج شيئاً. هو في حمايتي. العمى.. طيّرت الكأسين من رأسي. مالمحكاية؟
العفصة : لا أطيق وجوده.
سمسم : (بكيده نسائي) هو لا يطيق وجودي، لأنني أعرف بعض الأشياء..
عباس : وأنت ياابن اللوطية.. مامعنى هذا الغمز واللمز!
سمسم : هل تخميني؟
[يقفز العفصة، ويحاول أن يطعنه، فيتصدى له عباس، ويلوي ذراعه].
العفصة : لا ياأبا الفهد.. أتبعيني من أجل هذا العلق!
عباس : اي.. زدتها.. اهدأ، واجلس. وأنت أيها العرصة.. ماذا تريد أن تقول؟
سمسم : أنا دخيل شهامتك.
عباس : تكلم.
سمسم : خيرناه، فلم نجد لديه إلا مثل الرز، أو فتلة القماش. وعرفنا أن مافينا فيه، وما يحكنا يحكه.
عباس : (وهو يكتم الضحك) الآن.. امش، ولا تلتفت ورائك. وإن كررت ماقلت، هلكت.

سمسم : (محاوِلاً أن يختلس.. قبله من أبي الفهد) دعني أتزود
بقبلة من حبيبي.
عباس : (وهو يدفعه بصرامة) امشِ.
[يخرج سمسم، يجلس عباس، العفصة يطأطأء رأسه،
وينظر في الأرض، يرين صمت ثقيل].
عباس : (وهو يحتسي كأسه بهدوء) اشرب يا عفصة.. اشرب.
العفصة : (بلهجة ذليلة وعاتبة) لو تركتني أسفح دمه!
عباس : وما الفائدة! تلوث يدك، ولا تغتير من الأمر شيئاً.
العفصة : (منكسراً) هل سقطت من عينك؟
عباس : وحياة الفهد وأبيه كانت لدي ظنون. لا.. أنت الآن
حيويتي، وسأضعك في عيني. اشرب..
العفصة : (يحتسي جرعة وافرة) هذه الملائظ تجرحني..
عباس : انكشفت علي مثل حلالي. ولا داعي للتظاهر بالحياء.
العفصة : (وهو يمسك يد عباس، ويقبلها) أبوس يدك.. استر.
عباس : (وهو يضع يده على رقبته) باطل.. وهل يفضح المرء
حلاله!
العفصة : (وهو يبرغ وجهه بيد عباس) هل تعدني أن يظل كل
شيء، كما هو في الظاهر؟
عباس : (وهو يداعبه) إذن سيكون لنا، مخبر ومظهر!
العفصة : ككل الناس يا عباس.. ككل الناس.
عباس : إذا كنت طبعاً ومرضياً، فسأكون خيمة تغطيك،
وتحميك.
العفصة : سأكون كما تشاء. آخ.. كم تعذبت وشقيت، كي
أخفي هذا الأمر! كان كالدمل يسحمني في داخلي.
عباس : الآن.. انفقاً الدمل.. ويمكنك أن تستريح.

العفصة : نعم.. سأستريح. (يدفن رأسه في حضن عباس) انصب
خيمتك فوقي.. وسأستريح.
عباس : (وهو ينحني عليه) هاهي خيمتي..! ستكون كما
أنت.. ولن تشقى بعد اليوم.
[تتلاشى الإضاءة].

- مؤمنة : أنت!.. تنقذه!..
- المفتي : نعم.. أنا.
- مؤمنة : وماذا يدفحك؟ ألم تكن تتمنى دائماً إزا-ته،
والتخلص منه!
- المفتي : واليوم.. أريد أن أنقذه. سمّها ماتشائين. إن مروءتي
تملي علي أن أمدّ له يدي. هل ماتت النخوة! أينبغي
أن نرمي كل بادرة طيبة بالظنون والريب! جئت ماذا
يدي، فلا تجحديني.
- مؤمنة : لا أريد أن أجدك ياشيخ. ويجب ألا تستغرب إذا
فاجأتني غيرتك، وساورتني بعض الشكوك. فنحن
نعرف ماجرى، ومايجري بينك وبين نقيب الأشراف.
- المفتي : دعينا ننسى ماجرى. ولنتعاون على حل هذه الورطة.
- مؤمنة : ماذا تقترح؟
- المفتي : هل أخبروك القصة، وتفاصيلها!
- مؤمنة : أخبروني كل شيء.
- المفتي : إذن.. اصغي إلي. عليك أن تتزوّقي قليلاً، وأن تتهيأي
للخروج عندما يهبط الليل.
- مؤمنة : وإلى أين تريدني أن أخرج!
- المفتي : (متلفتاً حوله) أمتأكدة أن أحداً لا يسمعنا!
- مؤمنة : لا.. كن مطمئناً.
- المفتي : لقد دبرت السجنان، وكل شيء جاهز. حين يهبط
الليل، سنأخذك إلى السجن، ونستبدلك بالغانية التي
أمسكوها معه.
- مؤمنة : والله إنه تدبير لطيف يامفتينا. هذه فكرة لا تخطر إلا
للدهاة من الرجال.

المشهد الرابع

[إيوان الاستقبال في بيت نقيب الأشراف. يجلس
المفتي وحيداً في الإيوان، ويتشاغل بتفحص المكان. بعد
قليل، تدخل مؤمنة، زوجة نقيب الأشراف. امرأة، فارعة
القوام، تلتصق في وجهها عينان وهاجتان. ثيابها
محتشمة].

- مؤمنة : أهلاً وسهلاً ياشيخ.
- المفتي : (وهو يتفرد في وجهها) كانت الحشمة تقتضي أن
أرسل الحريم، ولكن المسألة حساسة، ولا أستطيع أن
أعهد بها إلى خفة الحريم.
- مؤمنة : كثر الله خيرك. هل جئت كي تصفني بالحفّة!
- المفتي : (مرتباكاً) لا.. عنيت حريمي.
- مؤمنة : ألا يسموننا جميعاً، الحريم! ولكن لا يهم. لم تشرفنا
بالزيارة، كي نتبادل الحديث عن الحريم.
- المفتي : هذا حق. أنت تعلمين..
- مؤمنة : نعم أعلم.. ولا ألومك، ولو شعرت بالشماتة.
- المفتي : لم أتأمل على نفسي، وأطلب هذه الزيارة كي
أتشفى أو أشتت.
- مؤمنة : هذا كرم منك. هل يحق لي أن أسألك عن غرض
الزيارة إذن.
- المفتي : جئت كي أنقذ رجلك من ورطته.

المفتي : ونجاحها مؤكداً. ستتقلب الورطة على قائد الدرك، حين يعلم الوالي والناس، أنه قبض على النقيب وزوجته.

مؤمنة : وهل الفرق بين الزوجة والغانية طفيف إلى هذا الحد!
المفتي : المهم أن يُشكل عليهم الأمر، وأن نباغتهم بوجودك في السجن.

مؤمنة : وسأكون أنا التي جرّسوها، ووضعوا على رأسها عمامة النقيب!

المفتي : وحينئذ، سيلعنون أنفسهم، وتنقلب عليهم الورطة.

مؤمنة : (عينها شاردتان) وسأكون تلك التي قبضوا عليها، وهي شبه عارية.. تلك التي كانت تتأود على الإيقاع الذي يضبطه نقيب الأشراف!

المفتي : سيهمل الناس هذا كله، حين يعلمون أن التي فعلت، هي الزوجة.

مؤمنة : والزوجة كانت سجينة البيت، تقرأ حكاية من ألف ليلة وليلة، وتسرح مع غمام الربيع. هل قرأت ألف ليلة وليلة يا شيخ؟

المفتي : ماهذه بالكتب التي يحتاجها الرجل العالم.
مؤمنة : سيضطري قراءتها علمك الجاف.

المفتي : أتري أن علم الدين جاف يامؤمنة..!

مؤمنة : لا أدري.. أحياناً أظن أنه جاف. ألا تظن أنه جاف!

المفتي : وما أدراك بعلم الدين، حتى تتحدثني عن جفافه!

مؤمنة : هل أدهشك إذا علمت أنني قرأت مكتبة أبي، ومكتبة نقيب الأشراف أيضاً!

المفتي : (مأخوذاً) أعترف أنك تدهشينني.
مؤمنة : ومع الأيام، سأدهشك أكثر. ولكن لنعد إلى الموضوع. تريدني إذن أن ألعب في هذه القصة دور الغانية!

المفتي : حاشاك.. سنطرد الغانية كي تغدو الرفقة مع الزوجة.
مؤمنة : الزوجة - الغانية، والغانية - الزوجة. هذا تلاعب لطيف.. وخطير أيضاً. لا يا شيخ.. إنك تدفعني في طريق وعر، لا أدري أين يقضي بي.

المفتي : (متحيراً) وما الوعر في الأمر! ستحلين مع زوجك بعض الوقت. وحين يتأكدون من هويتك، تخرجان، وينتهي المأزق.

مؤمنة : ينتهي مأزق النقيب، ويبدأ مأزقي أنا.

المفتي : إنني لا أفهم.. ألا تريدان أن تخلصي زوجك من ورطته!

مؤمنة : ولماذا ينبغي أن أخلصه! لكي أصونه للغواني! وهذا أمر، في الحقيقة، لا يشغلني. بل ويمكن أن أتغاضى عنه. هناك ماهو أخطر. ما تطلبه مني، هو مقامرة مخيفة. هو سير على حافة الهاوية، والغواية. ماذا تشعر حين تقف على حافة هاوية؟

المفتي : أحاول أن أكون حذراً.

مؤمنة : هذا جواب الرجل المتزن والمستقر. أما بالنسبة لي، فإن الهاوية تهزني من جذوري. يرعبني السقوط، ويعوينني في الوقت نفسه. وبين الرغبة والرعب، أهتز اهتزاز الشجر في اليوم العاصف. هل تصدق..! معظم أحلامي، هي هذا المزيج من الرعب واللذة. ولكن

لماذا أحكي لك هذا كله! أعتقد أنني لا أستطيع أن أساعد زوجي أو أساعدك يا شيخ.

المفتي : أمرك غريب يا مؤمنة..! لم أتخيل أنني سأتوسل إليك، كي تقدمي خدمة زهيدة، تنقذ زوجك من ورطة كبيرة.

مؤمنة : أفهم عجبك يا شيخ، فأنت لم يخطر ببالك، أنني حية، وأن لي أهواءً وأفكاراً. كان يشغلك النقيب، والأثر الطيب الذي ستخلقه بإدراكك. لا أعتقد أنك فكرت بي إلا كأداة طيعة، أو شيء من أشياء النقيب.

المفتي : يجب أن تكوني طيعة، وأنت في النهاية، ملك النقيب.

مؤمنة : أرأيت..! هذا ما تفكر فيه. ما أنا إلا أمة، أو ملك من أملاك الرجل الذي تعاديه. وأنت لديك خطة، وتريد أن تظهر مروءتك، وتنجد سيدي. فكيف لا أفرح، وكيف لا أطيعك في كل ما تدبره!

المفتي : نعم. إن رفضك بشير عجبي وحيرتي يا مؤمنة.

مؤمنة : إنني أرفض، لأنني أقاوم الدخول في فتنة الغواية. لو قبلت، فسأنزلق إلى موقع الهشاشة. هشاشتي وهشاشة أوضاعنا. سأكون على طرف الهاوية. وأخشى هذه المرة، أن يجذبي نداء الهاوية بلا مقاومة.

المفتي : أعترف لك، أنني لا أفهم مخاوفك. ولا أرى في ذهابك إلى السجن، ساعة من الزمان، كل هذه الأخطار المهولة التي تتحدثين عنها.

مؤمنة : هل اتفق لك، أن تنظر في دخيلتك يا شيخ!

المفتي : الحمد لله.. ليس في دخيلة نفسي ما أخشاه، أو ما أخجل من إعلانه على الملأ. الحمد لله الذي جعل التقوى باطني وظاهري، وروّض لي النفس الأمانة بالسوء على الطاعة والرضى.

مؤمنة : سعيد أنت يا شيخ. ومن يتراءى له، أنه يعرف نفسه لا بد أن يكون سعيداً. إنني أغبطك على ثقتك وبقينك.

المفتي : إن اليقين ضروري لمثلي. ولا أعتقد أن الوقت مناسب للحديث عن النفس وأهوائها. علينا أمر، ينبغي أن نجزه. أنا أفهم انزعاجك. ومن الطبيعي أن تشعرني بالمهانة، وأن تحاولي التعبير عن استيائك. ولكن هذا شأن بينك وبين ابن عمك، يمكن أن تواجهيه فيما بعد.

مؤمنة : أهذا ما فهمته من كلامي..!

المفتي : وماذا تريد أن أفهم! إن المسألة أكبر من غيرتك، وتوجساتك. وذهابك إلى السجن، أمر تقرّر ولا يمكن أن تجادلي فيه.

مؤمنة : ومن قرره؟

المفتي : نحن قررناه. أنا وأشرف المدينة. وإن سمعنا جميعاً مرهونة الآن، بنجاح هذه الخطة. إنك امرأة متكلمة، وشخصيتك تثير التقدير. ولكننا في موقف حرج، لا يسمح بألعاب الدلال، وتوهامات الخطر.

مؤمنة : أنا أتدلل! إنك لا تفهم شيئاً يا شيخ. وأقول لك للمرة الأخيرة. أنت تدفعني إلى منزلق خطير.

المفتي : لا يوجد هذا المنزلق الخطير إلا في أوهامك.

مؤمنة : أهذا رأيك ياشيخ..! ليكن.. إذن، أنت والأشراف
 قررتم أن أتزوَّق مثل غانية، وأن أحلَّ في السجن،
 غانية بدلاً عن الغانية. طبعاً.. أنا أعرف مغزى
 مروءتك، وغاية الإحسان الذي تسخو به. ما تريده،
 ليس إنقاذ النقيب، وإنما إذلاله بالجميل، وتطوير عنقه
 بمئة لا يستطيع الفكك منها. إنك تريد أن تتحكم به،
 وتطرحة تحت رحمتك.

المفتي : هل عدنا إلى سوء الظن!
 مؤمنة : دعني أتمُّ كلامي. ليس قصدي التعريض، ولا أبالي
 كيف تصير العلاقة بينكما. أنا مؤمنة الآن أنك فزت.
 وأن تدبيرك إذا نجح سيجعل رسن النقيب بيدك.
 ولكن من الواضح لي ولك، أن التدبير لا ينجح إلا إذا
 وافقت.. ومادامت حياتكم كلها مبنية على
 المساومات، فإني سأساوم بدوري قبل أن أوافق.

المفتي : وعلام تساومين! إنك تنسين دائماً أنني أنقذ زوجك،
 وأنقذك أيضاً.

مؤمنة : هذا ما أريد أن أساوم عليه. سأتزوَّق، وأذهب إلى
 السجن إذا ضمنت لي الطلاق بعد أن تختم هذه
 الحدوتة على هوك.

المفتي : (مبغوتاً، وعيناه تبرقان) أتريدين الطلاق..!
 مؤمنة : نعم. ولن أذهب إلى السجن إلا إذا ضمنت لي.
 المفتي : وكيف أضمنه..! هذا أمر لا يتعلق بي. وربما يفوق
 طاقتي.

مؤمنة : حين يخرج، سيكون أطوع لك من بنانك. لن
 يستطيع أن يرد لك طلباً. وعلى كل، هذه هي

المفتي : رغبتني.
 المفتي : لماذا لا تؤجلين الموضوع. هذه ساعة غضب. ولا
 تحمد القرارات في ساعة الغضب.
 مؤمنة : لا.. لست غاضبة. وهذا شرطي النهائي، إذا أردت
 موافقتي.
 المفتي : إنك عجيبة يا امرأة.. حقاً إنك عجيبة!
 مؤمنة : هل قبلت؟
 المفتي : سأفعل ما أستطيع.
 مؤمنة : لا.. قل لي سأمر، وسأنقذ.
 المفتي : هذا غريب.. تزوَّق، وحين تظلم الدنيا سيأتي رجل
 كي يرافقتك.
 مؤمنة : والغانية.. ستكون جاهزة.
 المفتي : (وهو يخرج) ما أعجب هذه المرأة! حقاً، ما أعجبها!
 مؤمنة : والآن يا مؤمنة.. هل نلبي نداء الهاوية، ونبدل كل
 شيء؟ في ظهري قشعريرة باردة. هل أجلس أمام
 المرأة، وأبدأ الزواق..؟ في ظهري قشعريرة باردة. هل
 أرمي اسمي، وأكسر أول قيد كبتني منذ مولدي..؟
 في ظهري قشعريرة باردة..
 [تتلاشى الإضاءة]

المشهد الخامس

[زنانة في السجن. يجلس عبد الله مُربد الوجه، ومتجمعاً على نفسه. تبدو وردة ضجرة ونافذة الصبر. هبط الليل، والقنديل العتيق المتسخ لا يكاد يزيح الظلمة. في أرضية الغرفة طبق عليه بعض الأطعمة].

وردة : هل يمكن أن نقضي الليل هنا! لم يأت أحد. هل تخلى الجميع عنك! وانظر ماذا رموا لنا.. أهدا طعام يُقدم لنقيب الأشراف! أرجو أن تكلمني.. لا أستطيع أن أتحمل الصمت في هذا المكان. ماذا أصابك! لم تنظر إلي ولو مرة واحدة. تفلقت على نفسك، وانعقد لسانك. أتعدّني مذنباً! وما ذنبي! ألم أطلب إليهم أن يعاقبوني بدلاً منك! لو طاوعتني، لما نجحت هذه المكيدة. كم مرة توصلت إليك أن تسجلني على ذمتك. ووعدت ثم ماطلت على عادة الرجال. لو كنت على ذمتك، لما جرؤ أحد على الاقتراب منا. واليوم، شاع أمرنا. (تقترب منه) عبودتي.. حبيبي..

عبد الله : (يلتفت غاضباً) لا تلفظيها مرة أخرى.
وردة : كنت تحب أن أناغيك، وأن أدلك. لا يلائمك العبوس يا عبد الله. إنك تفقد جمالك وسحرك. أرجوك كلمني.. قل أي شيء. ليس عدلاً أن تتنكر لي. تقاسمنا الحلو وها نحن نتقاسم المر. فكر في

قليلاً. إني وحيدة. غداً يأتي أتباعك، ويخلصونك. ولكن ماذا عني! هل تتركني لشماتة الناس وأذاهم! وماذا أفعل إذا أهدر المفتي دمي! لا ملجأ لي سواك. جعلتني أنذر نفسي لك.. ولم يبق لي سواك. أرجوك أن تسترني، وتحميني. ستكون شهامة، تكسف وجوه أعدائك. ستكون الرجل الذي يستحق أن تنذر المرأة نفسها له. ألم تقل لي إنك لم تعرف لذة المرأة إلا بعد أن عاشرتني! ألم تكن أوقاتنا فوارة بالحلب والنشوة! (تلف كفه، وتداعب وجهه، فيبعدها عنه بحركة فظة) أتبعيني الآن! لا يحق لك أن تعاملني، وكأني نجاسة. إني أحاول أن أمسح عنك الحزن. (تمسح على شعره).

عبد الله : (يزيح يدها بحركة عنيفة) أوقفني هذا الطنبور، ولا تلمسيني.

وردة : الآن تقول لا تلمسيني! كم جريت، وبذلت كي تنال لمسة مني. الآن لا تلمسيني.. وهذا الصباح، كنت ترقص على أربعة تحت عجيزتي! ياخسة الرجال. (تضرب وجهها بكفها) ولكن لماذا لا تتعلمين أيتها المعتوهة. إنك شرموطة بنت شرموطة. كم مرة اتفقنا ألا نثق بالرجال!.. كم مرة تواصلنا ألا نصدق وعودهم وأكاذيبهم الدنيئة! منذ ساعات، كان يذوب وجداً، ويرعد غيرة، ويطلب أن أرصد جسدي وحياتي لنزواته وشهواته. منذ ساعات، كانت مؤخرتي تمارق الجنة بالنسبة له. والآن، يتقزز من لمساتي، وكلامي، ووجودي معه. ولماذا أنا هنا

ياوردة! أليس بسبب السيد النقيب! والسيد النقيب
يعاملني، وكأنني العار الذي لحقه. إنك خسيس يا عبد
الله.. أقول لك في وجهك، إنك خسيس.
[ينهض عبد الله غاضباً، يرفع يده ليصفعها، ثم يتوقف
فجأة، تنكسر نظراته، ثم يتقهقر ويتداعى على الدكة
التي يجلس عليها].

وردة

: (بدهشة وحزن) لماذا لم تصفني؟ قل شيئاً. اشتمني..
اضربني.. يارب. ماذا جرى لك! لماذا تبدو منكسراً
إلى هذا الحد! إني معك. وما قلته لا أعنيه. (تبدأ
بالبكاء) إني وحيدة، وصمتك يضاعف وحدتي. هل
أذنبت في شيء؟ ألم يكن السيران فكرتك! ووجودنا
هنا، حادثة عابرة، وغداً تمر. لا يجوز أن تنكسر
عينك من أجل حادثة عابرة. غداً يأتي أهلك
وأصحابك، فيطوون الحادثة، ويعاقبون المكيدة. وأنا
أرهقني الصمت والخوف. تخيلت أن لي لحظة
لديك، وأن هذه التجربة ستوحد مصيرنا. في البداية،
فنتني أن نسجن معاً، ولم أتصور أن تتحول، وتنقلب
علي. قل لي.. ألم تحبني ولو قليلاً؟

عبد الله : (هادئاً) إني أنساك.. إني أنسى ما سلف من الأيام.

وردة : لا يا عبد الله.. لا تستطيع أن تنساني الآن. ماذا
أفعل..! إني خائفة. وحتى لو نجوت. ليس سهلاً أن
أستأنف حياتي التي تركت. وأنت.. أنت بالذات من
أجبرني على تركها.

عبد الله : مضت تلك الحياة التي كنت أعرفك فيها. مضت
تلك الحياة التي كنت أعيشها. وغدي ظلام، لا أرى

فيه منفذاً أو ميضاً.

وردة

: أعرف الرجال يا عبد الله. وأعرف أنهم حين يقررون
الهرب، يستخدمون جُملاً مبهمه، والفاظاً ملتوية.
كنت أظنك مختلفاً، ولكنكم لا تختلفون. تعودت
أن أتعايش مع الخسة، والكذب والخفايا المنتنة. لن
أنكسر مثلك. وإذا قررت أن تقطع، وتهرب، فسأجد
القوة كي أتجاوز خوفني، وأواصل عملي. لست أول
خيبة، ولن تكون الأخيرة. يارب.. ما أبشع هذا
الصمت.. ألا تريد أن تعرف كيف بدأت هذا
الطريق؟ نعم.. هي حكاية تروى. وماذا علينا! كلانا
قال مالديه. اسمع يا عبودتي.. يامن نسيت كيف
كنت تمرغ هيبتك وشاراتك وكيانك بين هذين
الفخذين. يامن كنت تشهق على سرتي، وتنشف
لحيتك من فرط اللذة. اسمع هذه الحكاية.. كان
ياماكان. كان هناك بنت صغيرة. أحلى من البدر في
ليل التمام. وكان أهلها يحتاجون الأكل، لا النظر إلى
الجمال. فباعوها إلى أسرة ميسورة. وكان رب هذه
الأسرة شيخاً جليلاً، له وزنه عند العامة والخاصة.
وسياتي يوم نكشف اسمه، ونعين صفته. كان الشيخ
الجليل يلحظني بعنايته. وقبل أن أحيض، كان قد
كشف لي الطريق، وسار معي فيه. كان يفسق بي،
وهو يعلمني طبقات الفسق ومراتبه. وحين جاءني
الحيض..

[صليل معدني مباغت. يُفتح الباب. يدخل عبود معه
مؤمنة التي اختفت في عباءة سوداء، وتنقبت بحجاب

أسود].
عبدو : (هامساً) لا تقل شيئاً ياسيد الأشراف. ولا تحدث أي ضجة. (إلى وردة) هيا أيتها المرأة، وتعالى معي.
وردة : من أنت؟ ولماذا أجيء معك؟
عبدو : ابلعي لسانك، وتعالى معي.
وردة : ولماذا أبلع لساني؟ أمسكوني مع النقب، ولا أريد أن أخرج إلا معه.
عبدو : امشي معي، وإلا حطمت وجهك.
وردة : على مهلك.. على مهلك.. كسرت يدي. أريد أن أمشي على ضوء. ومن المحروسة بسلامتها؟
عبدو : (وهو يجرها بقسوة) لست فاضياً لطق الحنك.
مؤمنة : انتظر.. انتظر..
[تخلع مؤمنة ملايتها ونقابها].
وردة : أيهون عليك يا عبد الله ما يفعله بي!
مؤمنة : تعالي أيتها المرأة!
وردة : اسمي وردة يامن تسرقين مطرحي.
مؤمنة : (برقة) عاش اسمك ياوردة. خذي.. البسي الملاية، وضعي النقاب.
وردة : لا يا ست.. أنا أحب السفرور.
مؤمنة : اسمعي ياوردة.. أنا زوجته. وجئت كي أنقذك، وأنقذه.
وردة : (مبغوتة) زوجته..!
عبدو : افعلي ما تقوله لك.
وردة : (مرتبكة) كيف أخذ ملايتك ونقابك. أنا تعودت على السفرور، أما أنت..

مؤمنة : إن الموقف يقتضي أن أكون سافرة. ولعلي سأعود على السفرور بعد هذه الليلة. ياالله.. الوقت ضيق. البسيها.
عبدو : البسيها، وخلصينا.
وردة : (وهي ترتدي الملاية، وتتقّب) وكيف أردّها لك؟
مؤمنة : لا تشغلي بالك. ربما زرتك قريباً.
وردة : وتزوريني..!
عبدو : (وهو يجر وردة) ياالله.. امشي.
[يخرجان بخطى متعجلة وخفية، ثم ينطبق وراءهما الباب، ويرتفع الصليل المعدني].
مؤمنة : ألا تسأل لماذا جئت!
عبد الله : أخجل أن أسأل.
مؤمنة : لا تتصرف كطفل كبير. لماذا تُنكس عينيك، وتتحاشى النظر إلي!
عبد الله : هذا اليوم، كسر عيني، وكسر روحي أيضاً. أود لو أغيب، فلا أرى أحداً، ولا يراني أحد.
مؤمنة : هوّن عليك. ماهي إلا فضيحة صغيرة، ومجيئي سيمحوها من خواطر الناس. غداً، سيكون بوسعك أن تعود عبد الله الذي يختال بين أعوانه وغانياته.
عبد الله : يحق لك أن تغضبي، وأن تلومي.
مؤمنة : لست هنا كي أغضب أو ألوم.. ولكنك لا تسألني لماذا جئت!
عبد الله : لماذا جئت؟
مؤمنة : لأن الوالي قد يعث رسولاً، كي يتأكد أن الغانية التي

أوقفوك بسببها، ورموك في السجن معها هي زوجتك. انظر إلي.. ألا ترى كيف تزوقت، وماذا أردتدي؟ ينبغي أن أكون الغانية. ألا أشبه الغانية!

عبد الله : ومن حبك هذه القصة؟

مؤمنة : وهل يستطيع أن يحبك هذه القصص إلا المفتي.

عبد الله : (ذاهلاً) المفتي..!

مؤمنة : نعم المفتي.. ولعله الآن ومعه الأشراف عند الوالي.

عبد الله : المفتي ومعه الأشراف..! هذا هو التلف الذي أخبرني أبي عنه.. من الصعب أن أشرح لك.. كم تقلب حالي منذ دخلت هذه الزنانة..! أشعر أنني في مخاض صعب.

مؤمنة : كلنا الآن في هذا المخاض.

عبد الله : حين جلست في عتمة هذا المكان، وكانت لا تزال

آثار السكر تغشى عقلي وبصري، تراءى لي والدي. لم يكن غاضباً، بل كان حزيناً. بصوته العميق والرخيم، سألتني.. ماذا فعلت بميراثي يا عبد الله! وتمنيت لو تبلعني الأرض إلى قعرها. غضضت بصري، واحتواني العار كأنه جلدي. حقاً.. ماذا فعلت بميراثه! وقال لي، وكأنه يواسيني.. أتلفت ظاهرك، فتدرك باطنك، وانقذه من التلف. ولا تنس يا عبد الله أنني عشت سبعين سنة. ووالله لو وضعوا هذه السنين السبعين على طبق وعرضوها أمام الخالق، لما خجلت من شيء فيها مهما صغر شأنه. نعم.. خلال ساعات قليلة يخيّل إلي أنني ألقى حجاً على مافات، وأني أتحمس في القمة باباً إلى ما تبقى من

فضلة العمر. لا أدري.. ولكن حياتي ستتغير أو تغيرت فعلاً. وأرجوك أن تسامحني. أعلم أنني آذيتك، وأعدك أنني سأكفر عن كل أذى ألحقته بك.

مؤمنة : سيظل أبوك يلاحقك إلى مماتك يا عبد الله! وعلام

أسامحك! لم تؤذتي في شيء. تذكر.. هل عاتبتك من قبل! هل سألتك يوماً، أين كنت، وماذا فعلت! هل استنكرت تلك الروائح التي كنت تحملها بلا حرج إلى فراشنا!

عبد الله : أتعرف أنك امرأة من معدن نادر، وأنتك بالتسامح والكياسة والكرم علوت علي كثيراً.

مؤمنة : لم يكن همي أن أعلو عليك. كنا منفصلين منذ ليلة

زفافنا، وكان كل واحد يدور في حلقة نفسه. كنت مشغولاً عني، وكنت مشغولة عنك. ولم يكن هناك أي دافع جدي للغيرة أو النكد. ما كان بيننا إلا العقد، والسكن، وتلك العناقات المخبوءة تحت ثقل الحياء والهيبة والطهارة. لا.. لم يكن تسامحي كرمًا، بل كان نوعاً من اللامبالاة. ولو حاولت أن أفكر في زواجنا، لما تذكرت إلا الصمت وبعض المظاهر، ولزوجة تلك العناقات. نعم.. إن أحداث هذا اليوم، ودخولنا هذه الزنانة سيعجلان بالمخاض الذي ينتظره كل منا.

عبد الله : هل كان زواجنا سيئاً إلى هذا الحد!

مؤمنة : كان زواجنا، زواجاً لا أكثر.

عبد الله : سأكفر عن كل لحظة فاتت.

مؤمنة : قلت لك.. ليس هناك ما تكفر عنه. لا أحمل لك أي

ضعينة أو لوم، ولم أشعر يوماً بالغيرة. أو إذا شئت الحق، كنت أغبط تلك الغانيات، ولكن ليس لأنك كنت معهن، بل لأنهن غانيات. يوم زافنا أجلسوني على الأسكي، وأوصوني أن أغضّ طرفي، وأن أتجهم، وأن أحجل. ظهرت راقصة في الجوق الذي كان يحيي حفلة الزفاف. كان جسدها حراً. يكاد يضيق به فناء داركم الواسعة. كان جسدها يتدفق، يتماوج، يمتد، يضحك، ويشهق. كانت حرة كالهواء، وثوبها البراق يود لو يتساقط، ويتركها تجمع وتضيء الليل. كم تمنيت أن أنهض عن الأسكي. أن أمزق الثوب الذي يحزميني، ويصنبي كالقالب. وددت أن أقفز، أن ألتقط الإيقاع، وأنضم إلى الرقص. يومها أحسست أنني قادرة على الرقص حتى الصباح. وكنت متيقنة أنني لن أمس الأرض إلا مساً عابراً. سأظل في الجوق في الهواء، في هذا الفضاء الليلي المنعش. وسأكون حرة، حرة مثلها، حرة إلى الأبد. ويومها قلت في نفسي.. لعلني أفعل ذلك حين يخلو بي. الغرفة ضيقة، ولكنني سأجعل الجدران تنزاح، وسأترك جسدي يتدفق، ويتضاعف (باشمتران) .. وأنت تعرف الباقي. على كل، لم أغامر بالهجيء إلى السجن كي نتحدث عن زواجنا، ونتذاكر أيامنا. قل لي.. ماذا كنتما تفعلان عندما باغتكما الدرك؟

عبد الله : يارب.. إنك مجروحة، وجرحك عميق. لاشك أن جرحك هو الذي يتحدث من فمك. وأنا لا أعرف إن كنت أتحمل مزيداً من الحجل فوق خجلي.

مؤمنة : لست مجروحة، ولا تلم نفسك. أجبني.. ماذا كنتما تفعلان؟
عبد الله : يارب.. وفري علي هذا الهوان. ولماذا تريدان أن تعرفني!
مؤمنة : لكي تكون الأفعال والأقوال متطابقة. هل كانت ترقص! (يومئ برأسه خجلاً) علام كانت ترقص؟
عبد الله : (مخفياً وجهه يديه) لا أذكر..
مؤمنة : ينبغي أن تتذكر. انظر.. (تبدأ بالتلوي استعداداً للرقص) نعم.. أنا أرقص أيضاً. ينقصني شيء من المرونة والخفة. لكنني قريباً سأتجاوز هذا العيب. يا الله.. أعرف أنك تضبط الإيقاع جيداً. لا نحتاج إلى الطبله. يمكن أن تصفق، وتوقع لي اللحن.
عبد الله : يارب.. ماذا تفعلين! أنت مؤمنة! أنت زوجتي!
مؤمنة : أنا الآن غانية، قبضوا عليك معها. ساعدني ولا فسد التدبير كله. هل كنت تضبط الإيقاع بالطبله أم بالمرهر؟
عبد الله : (ذليلاً) بالطبله.
مؤمنة : طيب.. عندما تذكر اللحن، اتبعني.
[تبدأ مؤمنة بالرقص. في البداية تكون حركاتها مرتبكة وخشنة ثم ترق وتزداد إيقاعية وجمالاً].
عبد الله : (يتابعها مبهوتاً) يارب! يارب! يارب!
[تتلاشى الإضاءة]

المشهد السادس

[في دار الوالي. الوالي، ويبدو ناعساً ومنزعجاً. المفتي وحميد العجلوني وابراهيم دقاق الدودة وصفوت العابدي وهو مندوب الأشراف في المدينة]

الوالي : يا محمد.. هذه قصة لا تدخل إلى العقل.. أفكر.. وأفكر.. وأجدها لا تدخل إلى عقلي. بانتظار عودة الكشافة، يجب أن نستدعي قائد الدرك لكي يوضح لنا غرضه، وسبب هذا الفعل.

المفتي : لا يا حضرة الوالي.. لا نقبل أن يضمنا معه مجلس. هذا خصمنا والمفتري علينا. ونحن كما قلت ضاق بنا العيش، ولم يعد يأمن المرء على الاختلاء بأهله وحلاله. كيف يمكن أن نقعد في مجلسه بعد هذه الإهانة؟

صفوت : والله.. هذا رأينا جميعاً. بعد هذا التعدي على الحرمات! صار العيش في مدينتنا ذلاً وكرهاً.

المفتي : لم نعرف كيف نهديء الأشراف، ورجال الحارات. إنهم كالبارود الذي ينتظر شرارة. أعطوني مفاتيح دورهم، وسندات أملاكهم وقالوا لنا، اعطوها للوالي إذا كان يقبل لنا هذا العار، فما عادت الديار ديارنا، وماعادت المدينة أرض سكن لنا. وكما ترى.. المفاتيح والسندات بين يديك يا حضرة الوالي.

الوالي : أنتم تعرفون أنني لا أحب المشاكل. وهذا الحديث عن البارود لا يعجبني.

صفوت : كيف لا يغضبون وهم يرون أن رجال الأمن لا يوقرون لهم كبيراً؟ يقتحمون خلوة نقيب الأشراف مع حريمه دون حياء، ويجرونهما وسط البهذلة إلى السجن.

المفتي : نحن نعرف حرصك على الهدوء واستقرار البلد. وإنما لم نقصّر في تهذئة الأحوال وضبط الاستقرار، ولكن ما حدث اليوم لا يمكن السكوت عليه. وما جئنا إلا لكي تنصفنا، وتعيد لنا حرمتنا. أما المفتري، فترك أمره لعدلك وتقديرك.

حميد : الحقيقة أن شخصاً متهوراً مثل عزت بيك لا يصلح أن يكون قائد الدرك.

صفوت : والعدل أن يرمى في السجن بدلاً من النقيب الذي افترى عليه.

الوالي : لا تملوا عليّ ما ينبغي عمله مع موظفي ولايتي.

المفتي : لا أحد يملّي عليك شيئاً يا حضرة الوالي. إنها أفكار نتداولها. هل يمكن لرجل حصيف ونزيه كوالينا أدامه الله، أن يترك هذه الحماقة الشنيعة بلا عقاب!

صفوت : ونقول لك بصراحة إن الخواطر لن تهدأ ما لم يعاقب المفتري علينا.

الوالي : طيب.. دعونا ننتظر ما يأتي به الكشافة أولاً.. يا محمد.. هذه قصة لا تدخل إلى العقل.

[يدخل خصي الحرم].

الخصي : سيدي.

والآن نستأذن في الانصراف. وسامحنا لأننا أيقظناك
من جوف الليل، وأتعبناك في السهر معنا.
: لا.. لا.. كان ضرورياً أن تأتوا، وأن أعلم ما يجري.
اذهبوا، وهدئوا الرجال. وأرجو أن تصحو المدينة غداً
بلا عكر. قبل أن تصلوا بيوتكم، سيكون النقيب قد
أفرج عنه، وسنحاول أن نردّ الاعتبار لكل الأشراف
ووجهاء البلد. انتظروا.. لعلكم نسيتم المفاتيح
والسندات.

الوالي

صفوت

الوالي

المفتي

الوالي

: سنتركها أمانة حتى تقتصّ لنا من الذي أهاننا.
: لا.. لا. خذوها.
: سنأخذها، وتأكدوا أن عدل حضرة الوالي لن يخذلنا.
[يحيون، ويخرجون]
: ثعابين.. والله.. كلكم ثعابين. وهذا الخرا عزت. ماذا
يريد! هل يحاول أن يشعل الفتنة في ولايتي! أريد أن
يزعزع مركزي! هل يجري الماء تحتي وأنا لا أدري!
إف.. إني نعسان، والصبح رباح.
[تتلاشى الإضاءة].

الوالي : ماذا! هل تقصيتم الأمر جيداً؟
الخصي : نعم. والمرأة المسجونة مع النقيب هي زوجته.
الوالي : أهذا أكيد؟
الخصي : لا مجال للشك يا سيدي.
الوالي : طيب.. انصرف.
المفتي : بان الحق وزهق الباطل يا حضرة الوالي.
الوالي : نعم.. نعم. والله، قصة تحيّر العقل.
صفوت : بعد هذا.. أتلومنا إن غضبنا!
ابراهيم : الإهانة لحقت بالمدينة كلها.
الوالي : طيب.. طيب.. سنصلح الخطأ فوراً. سنفرج عنه،
وسنعتذر له أيضاً. وأتم.. لا تؤاخذوني. هذه القصة
لم تدخل عقلي في البداية، لأنني كنت أعتقد أن قائد
الدرك رجل عاقل ويُعتمد عليه.
صفوت : من حقنا أن نطلب عقابه.
الوالي : سأرى.. سأرى. ولكن سأعتمد عليكم في تهدئة
الناس، ومنع أي شغب. تعرفون حبي للاستقرار، ولا
أريد أن تلتخ ولايتي الاضطرابات والمشاعبات.
المفتي : مادمننا نتعاون، وحبل الود بيننا ممدود، فإني أعدك أن
تظل الشام كالبركة الساكنة، لا يعكر الموج سطحها.
الوالي : مشكور يا مفتينا. وإن شاء الله لا ينقطع جبل الود
مادمت والياً على الشام. وأنا الآن مبسوط جداً، لأنه
لم يعد هناك خلاف بينك وبين نقيب الأشراف.
المفتي : إهانة الغريب توحد الأهل، وتمحو الخلافات العابرة.
الوالي : هل تريد أن تذكرني بغربتي!
المفتي : أستغفر الله.. أنت رأسنا، وأصبحت من عظام رقبتنا.

دركي (١) : تبين أنها زوجته.
 هزت : كيف تبين! ألم تكن تلك الغانية التي اسمها وردة!
 دركي (٢) : نحن لا نعرف. قلت لنا إنها غانية، وصدقتنا. أمرتنا أن
 نقبض عليهما، ونقدنا. ونحن ما أدرانا. المرأة تشبه
 المرأة. واليوم علمنا أن المرأة التي قبضنا عليها كانت
 زوجته.

هزت : لم تكن زوجته.
 دركي (١) : الوالي والناس جميعاً يؤكدون أنها زوجته.
 دركي (٢) : وهذا يعني بالدليل واليقين أنها زوجته.
 هزت : حلّ عن سماي، أنت وواليك. البارحة تفرجت
 عليهما الشام كلها، ولم يذكر أحد أنها زوجته. فماذا
 حدث اليوم! اسمع أيها السجان.. أنت رأيتها. قل
 لي.. هل كانت زوجته!

السجان : لم أنظر إليها. ولكن حين أرسل الوالي، أطل الله
 عمره، وفداً من حريمه وخصيانه، تبين أنها زوجته.

هزت : ألم يأت أحد إلى السجن قبل الحریم!

السجان : لم يأت أحد.

هزت : لعلك غفلت، أو ذهبت لأمر.

السجان : لا أغفل، ولا أغادر السجن.

هزت : أتقسم؟

السجان : أقسم برأس أمك. ليس لك علي يمين. لو تبصرت،
 وتحققت، لتجنبتي هذه البهدة.

هزت : جنون.. ورأس أمي هذا جنون. يريدون أن أفقد

عقلي. وكأنني لا أعرف البلد وما فيها. وكأنني لا

أعرف وردة، ولا أمير وجهها. أيها الدركي.. اذهب،

المشهد السابع

[في السجن. عزت ودركيان سكان بذراعيه.
 السجن. عزت شديد الغضب منهز الوجه وعلى
 زاويتي فمه زيد دبق. إنهم جميعاً أم الزنزانة].

عزت : جنون.. ورأس أمي، هذا جنون ألم تكونا معي!
 (فجأة بلهجة أمرة) اتركا ذراعِي وقدا سلاحاً
 تعظيماً.

دركي (١) : لا تصعب مهمتنا يا عزت بيك.

عزت : أنا قائدكم، وأنا الذي أعطيكم الأمر.

دركي (١) : لعلك كنت.

دركي (٢) : الوالي فوق القائد. والوالي أمر أن شمع في السجن،
 ونحن لا نستطيع أن نخالف أمر الي.

عزت : هذا الوالي رمة يتلاعب بها الواشو والخصيان.

دركي (٢) : (لزميله) تظاهر بأنك لم تسمع ماة.

دركي (١) : وماذا قال! لا.. لم أسمع ماقال.

عزت : أنتشاطران يأولاد الزواني! (بلهجة أمرة، والدركيان

يستجيبان بحركة لا شعورية ثم يتران) أنت وهو..

أجيبا.. البارحة، حين كبسنا نقييد العرصات. من
 وجدنا معه!

دركي (١) : وجدنا معه امرأة.

عزت : أعرف أنها امرأة. ولكن من كانتلك المرأة!

واحضر البنت وردة. ابحث عنها في بيتها، في أوكار المدينة وحواريها. واحضرها إليّ حالاً. هيا تحرك..

دركي (١) : (لزميله) ماذا قال!

دركي (٢) : هل قال شيئاً!

دركي (١) : ياالله يا أبا ابراهيم.. لماذا لا تفتح الزنزانة وتخلصنا!
عزت : ألم تعد لي طاعة أيها الجربوعان! انتظرا.. سأحل هذا اللغز، وسأعود إليكم. ماذا حدث! كيف تخفي الحقيقة في ليلة واحدة! كيف تنقلب الحقيقة خديعة، والخديعة حقيقة! هل جُنَّ الوالي..! هل جن الناس..!
هل جنت المدينة..!

دركي (١) : الكل مجانين، وأنت العاقل الوحيد.

عزت : (صارخاً) لم تكن زوجته، وكلكم تعلمون.

دركي (٢) : بل كانت زوجته.

دركي (١) : الوالي يؤكد، ونحن نؤكد، والناس كلهم يؤكدون.

دركي (٢) : لن نقضي النهار في الأخذ والعطاء. ماذا تنتظر يا أبا ابراهيم!

السجان : يجب أن نغيّر زيه قبل أن نضعه في السجن. القانون يمنع سجن الرتبة، والزي الحكومي.

دركي (١) : صحيح.. ألم يقل الوالي انزعوا رتبته، وارموه في السجن.

السجان : معلوم.. الزي والرتبة لهما حرمة.

دركي (٢) : وماذا يلبس؟

السجان : جلباب المساجين.

عزت : ولماذا لا يكون قميص المجانين!

دركي (١) : إذا واصلت العناد والهלוسة، سيأتي دوره. هيا

ساعدنا. واخلع هذه الملابس.

عزت : لاشك أن العالم اختل، والحقيقة ضاعت. كيف

تضيع حقيقة بهذا الوضوح!

[ينزع الدركي الأول رتبته، يناولها للسجان فيما يفك

الدركي الثاني أزرار سترته].

عزت : لم يخبرني مخبر، بل رأيت ورأوا معي. إنهم يعرفون

الحقيقة ويخفونها. إنهم يكذبون (يسحب الدركي

الستر من ذراعيه، ويبقى بقميصه الداخلي) إنكم

تكذبون. أخفيتم الحقيقة كي تنالوا مني. كي أبدو

مختلاً (بعد فك الحزام والأزرار، يسقط البنطلون إلي

قدميه، يلاحظ جسده شبه العاري، يستشيط غضباً)

ماذا فعلتم يا أولاد القحبة! (يصفعه الدركي الثاني

صفعة مدوية، فينظر إليه عزت ببلاهة، وهو يضع يده

على خده) أتصفعني..! كيف تجرؤ..!

دركي (٢) : ومن أنت حتى تشتم الدرك!

عزت : أنا عزت بيك.

دركي (٢) : طز.. ما أنت الآن إلا سجين مخبول. (يحاول عزت

أن يضربه، فيمسك الدركي يده) اهدأ.. وإلا عفستك

برجلي. هات الجلباب يا أبا ابراهيم.

عزت : (وهم يلبسونه جلباب السجن) جنون.. ورأس أمي هذا

جنون.. اختلت الموازين، وعميت العيون، ودفنت

الحقيقة بمؤامرة وتدمير. لم تكن زوجته، ولو أجمعت

السموات والأرض على ذلك.

[بعد ارتداء الجلباب، يفتح السجان الزنزانة، ويدفع

الدركيان عزت إليها ثم يغلق السجان الباب]

عرب : (من وراء القضبان) لم تكن زوجته. سأكشف هذا اللغز، وأعود إليكم يا أولاد الزواني.

دركي (١) : الآن.. بَعْر كما تشاء.

دركي (٢) : هيا بنا..

عزت : (صارخاً) انتظرا.. بحق العشرة.. هل أطلب منكما خدمة صغيرة!

دركي (١) : ماذا تريد؟

عزت : ايحنا عن وردة، وقولا لها أن توافيني إلى السجن.

دركي (١) : أتحيينا مجانين!

دركي (٢) : دع عنك هذا الهبل. ولا تزد غضب الوالي غضباً.

[يخرج الدركيان]

عزت : أقسم. إنها لم تكن زوجته. يريدون أن أجن.

السجان : اسمع.. لست فاضياً لك. ما أعرفه هو أن المرأة التي خرجت من السجن كانت زوجته.

[يدخل عبدو].

عزت : (يصيح فرحاً) ها أنت يا عبدو.. أين المفتي؟ انظر ماذا فعلوا بي.

عبدو : (للسجان) هل تأذن لي بالكلام معه؟

السجان : تفضل.. تفضل.. يا عبدو.

عبدو : (وهو يواجه عزت من وراء القضبان) جئت أحمل لك يا عزت بيك أسف سيدي وملامته.

عزت : ملامة.. وعلام يلومني!

عبدو : زدته حرجاً على حرج. كيف يجوز أن تقبض على النقيب وهو في خلوة مع حريمه!

عزت : لم تكن حريمه. قل للمفتي، وأكد له أنها لم تكن

زوجته. صدقني في الجو ما يريب.

عبدو : اسمع يا عزت بيك. تحققنا، وتأكدنا أنها زوجته.

والناس كلهم مقتنعون أنك قبضت عليه وهو في خلوة مع زوجته.

عزت : كانت وردة يا عبدو. أنت تعرف وردة، والعفصة يعرفها أيضاً. أرجوك.. قل للمفتي أن يطلبها، ويسألها.

عبدو : قلت لك. تحققنا، وتأكدنا. كان النقيب مع زوجته.

وهذه القضية انتهت. جئت لك لأسألك إن كنت تحتاج شيئاً، وكيف يستطيع المفتي أن يساعدك.

عزت : لا أحتاج إلا إلى الحقيقة. وأطلب من المفتي أن يساعدني على كشفها.

عبدو : الجميع تقصوا الحقيقة. الوالي والمفتي والأشراف.

والجميع تأكدوا أن المرأة التي اختلى بها النقيب كانت زوجته.

عزت : (غاضباً) ورأس أمي.. ليست تلك هي الحقيقة.

عبدو : أيمن أن يخطيء الجميع، وأن تكون وحدك على صواب! لاشك أن الغضب والتهور غشياً بصرك

يا عزت بيك. ألا تريد شيئاً آخر؟

عزت : لا.. لا أريد. وأخشى الآن أن يكون السم الذي يسري في جسدي وعقلي هو من بعض لدغات

المفتي. جنون.. ورأس أمي هذا جنون. تريدون أن أفقد عقلي، ولاشك أنني سأفقدته. قل للمفتي أن يفتني

في هذه القضية. أيكفي أن يجمع الناس على أمر كمي يغدو حقاً وصواباً! ألا يمكن أن ينخدع الناس؟ أليس

المشهد الثامن

[في بيت عبد الله. عبد الله حافي القدمين، يدخل إلى غرفة الضيوف متراجعاً بظهره وهو يرحب بضيفه. يدخل المفتي لا مبالياً بترحيب عبد الله، أو رد التحية له.]

عبد الله : لو علمت أنك ستشرفني، لاستقبلتك حافياً من أول الحارة.

المفتي : حين زرتني، أغلقت بابي دونك كيلا تظن أن عداوتنا زالت. وجئت إليك الآن، والعداوة هي هي. ولكن بعد تلك الفعلة الشنيعة، هناك حساب ينبغي أن يُصَفَّى.

عبد الله : صدقتي.. مازلت أغسل قلبي حتى خلا من كل عداوة.

المفتي : ماجئت مصالحاً يا عبد الله.

عبد الله : لك صدر الدار، وصدر صاحبها ولو جئت تطلب خرابها.

المفتي : ألا تشعر بالحياء..!

عبد الله : ألا تشعر بالحياء! كلما فتر شعوري بالحياء، لطمت وجهي، وأنعشت ذاكرتي حتى يأخذني الصغار، ويصبغني الاحمرار. وحيائي بين يديك هيّن لو قيس بحيائي من خالقي.

هؤلاء الذين يصدقون اليوم أنها زوجته هم الذين كانوا البارحة يصفرون ويستنكرون؟ أيجوز أن تخفي الحقيقة، وتُبدى حسب مايشاء الهوى أو حسب ماتشاء المصلحة! هذه مسائل.. فهل يفتينا بها؟! أقول لك.. الحقيقة تظل هي الحقيقة. والمرأة التي قبضت عليها لم تكن زوجته.

عبدو : سيصلك الطعام كل يوم.
عزت : وفروا الطعام. لا أريد.. لا أريد شيئاً إلا الحقيقة. لم تخذعني عيناى، وما رأيته كان واضحاً.
عبدو : سأمر عليك بين وقت وآخر.
عزت : والمفتي.. أأن يمر علي؟
عبدو : سببت له ما يكفي من الإحراج. ولولا الودّ ما أرسلني. [يخرج عبداً].

عزت : جنون ورأس أمي هذا جنون. ماذا أفعل! كيف اتفق أن أحداً لم يقف معي! كيف اتفق أني الوحيد الذي رأى! ماذا رأيت! أحقاً رأيت! جنون. ورأس أمي هذا جنون.
[تتلاشى الإضاءة]

المفتي : لا تتلاعب بالندم والزلفى إلى الخالق. خير لك الآن أن تستر طابقتك، وتدفع ضريبة طيشك واستهتارك.

عبد الله : ماعاد لي مطعم في عرض من أعراض هذه الدنيا ياشيخ قاسم. وما تراه ضريبة مناسبة، سأدفعه في الحال.

المفتي : لَطَّخت نقابة الأشراف، ومرغتها بأفواه العامة والقبل والقال. ومثلك لا يليق لهذا المنصب، ولا يؤتمن على هيبته وشرفه.

عبد الله : قلت لك.. تركت التعلق بزينتها وبرقعها. وإني الآن أتخلي أمامك عن منصب النقيب. وأترك لك وللأشراف اختيار نقيب يحل مكاني.

المفتي : هذا قرار لا تراجع عنه يا عبد الله.

عبد الله : أعطيتك كلمتي ياشيخ، وإن أردت شهوداً أحضرنا الشهود.

المفتي : الآن تتصرف بحصافة، وتقطع بعضاً من أسباب العداوة.

عبد الله : لن تبقى عداوة ياذن الله. صفا قلبي، وأرجو أن يصفو قلبك.

المفتي : لدي مرشح للنقابة، واريد أن تدعمه.

عبد الله : إن تسامحت.. أود أن أظل بعيداً عن هذا الأمر. وإن أمرت.. فسأؤقيك شيئاً من معروفك، وأدعم مرشحك.

المفتي : أريد مرشحي نقيباً.

عبد الله : إذأ.. سأدعمه بما أستطيع.

المفتي : بقيت واحدة.

عبد الله : نعم.. بقيت دناءة تؤرقني، وتثقل على ضميري. أفكر بالذهاب إلى الوالي، والبوح بالحقيقة كي أنقذ ذلك الرجل المغدور.

المفتي : من تقصد؟

عبد الله : قائد الدرك.

المفتي : لا.. دعه في السجن كي يتربى خلفه، ويتعلم توقيير الأكاير، وعدم الاستخفاف بهم. ولو أعلنت الحقيقة للوالي، فستضعنا جميعاً في موقع الكذب والجرح. لا.. دعك من قائد الدرك، فقد تجاوز حدّه ويستحق ما أصابه.. ما عينته هو أمر آخر يخرجني الحديث فيه. ولكني قطعت على نفسي عهداً، ولا بد من وفاء العهد.

عبد الله : لا تخرج ياشيخ، واطلب مابدا لك.

المفتي : عليك يا عبد الله أن تطلق زوجك.

عبد الله : أطلق زوجتي..؟! ولماذا؟!

المفتي : كان ذلك شرطها للذهاب إلى السجن.

عبد الله : أعرف أنها كانت مجروحة وغاضبة. ولكن أريد أن أصلح حياتي، وأن أعوضها عن الجرح وحماقات الأيام الفائتة.

المفتي : أعتقد أن المسألة أصعب من ذلك. لم تكن لوامة، ولم تكن غاضبة. طبعاً أنت أدرى بحريمك مني. إلا أنني لم أستطع إقناعها، إلا بعد أن انتزعت هذا الوعد مني.

عبد الله : ووعدتها!

المفتي : تلك إرادتها، ولم يكن أمامي سبيل آخر. لولا أن

الظروف تحكمت، ما سمحت لنفسي أن أتدخل في شؤونك العائلية.

عبد الله : يا رب.. تلك إشارة أخرى تأتي. أهدأ هو الطلاق الأصغر الذي تبلوني به، كي أقوى على الطلاق الأكبر!

المفتي : كنت مضطراً يا عبد الله، والوعد هو الوعد.

عبد الله : هل أفهم أنك تأمر بالطلاق!

المفتي : الأمر ليس أمري. هي التي اشترطت، وهي التي رفضت الحديث عن إصلاح ذات البيت. كان موقفها حاسماً، وقولها عجباً، وأنت أعلم بأهلك مني. إذا شئت أن تجرب، يمكن أن أمهلك وقتاً.

عبد الله : معك حق. لاحظت أنها تغيرت. طلبت عفوها، فلم تبال. وحاولت الحديث عن أيماننا المقبلة، فنفرت ولم تصغ إلي. منذ تلك الليلة، وكلانا يهيم في دنيا من الصمت والوحشة. يا رب.. ساعدني.. أهي إشارة كي ألبسها!

[ينحط على كرسي، ويغرق وجهه في غياب قلق].

المفتي : (يمهله فترة، وهو ينظر إليه شامتاً ومتعجباً) ما جوابك؟

عبد الله : (يتمتم، وما زال غائباً) هي إشارة.. لاشك أنها إشارة.

المفتي : ماذا ألمَّ بك! هل تنتظر وحياً من السماء! هذا جزء من الفاتورة يا عبد الله.

عبد الله : (مجفلاً) نعم.. هي إشارة. إنها طالق منذ الساعة يا شيخ.

المفتي : بارك الله فيك. لقد صقيت الحساب كله. الآن، يمكن أن نقلب العداوة صلحاً وصدقة.

يقترّب المفتي من عبد الله، ويفتح له ذراعيه. لكن عبد الله يتجاهله، وينهض، فيتمشى في الغرفة كالمأخوذ].

عبد الله : يا رب.. ترأف بضعفي، وهشاشة حالي. يا رب.. علمني كيف أميّز بين إشاراتك وتخبّلات عقلي. يا رب.. قوّني على تحمل حالي، ومجاهدة حالي، وقهر حالي.

[يركع على الأرض، ويفتح يديه بحركة تضرع، ويرفع رأسه ناظراً إلى الأعلى. يتأمله المفتي لحظات ثم يهز رأسه كالمشفوق، ويخرج. يظل عبد الله وقتاً طويلاً، وهو ساكن في وضعيته يهيمهم ضراعات لا نسمعها. يدخل الخادم.. ينظر إليه بداهة، ثم يقف منتظراً].

الخادم : (يبدأ هامساً) سيدي.. سيدي.. سيدي.. (يقترّب الخادم منه بخطى مترددة، ويرفع صوته) سيدي..

عبد الله : (كمن يصحو بغتة) آه.. ماذا!.. أجفّلتني يا حارم.

الخادم : سيدي.. خشيت أن تنسى.. الليلة عرسى. ألم أشرح لك! وعدت تلك الملعونة أن أعرس عليها يوم عودتك إلى البيت بسلامة. وبالزور صيرتها هذا الأسبوع. ستفضحني إن أجّلت، أو تهربت.

عبد الله : أتزوج الليلة يا حارم؟

الخادم : هل حدث شيء يا سيدي! لم أحدّد الموعد إلا برضاك، وموافقتك.

عبد الله : نعم.. نعم.. أذكر. اذهب، تزوج.

الخادم : ألن يبارك سيدنا العرس!

عبد الله : لا.. إني طلقته ثلاثاً.. ثلاثاً.. بتاتاً. صارت الدنيا، وأعراسها حراماً.. حراماً. دعني في خلوتي.

الوالي : لا تكن عجولاً، وتذكر أن لكل أمر بدءاً.
عبد الله : تلك هي المشكلة. من أين أبدأ! وكيف!
الوالي : تبدأ بيدن عار، وبطن جائع. خزق ثيابك، واستر
بدنك بمرقعة.
[ينهض عبد الله، يتناول من درج رقعة صوفية زرية
ومرقعة. يهمب بتمزيق ثيابه الفاخرة، ثم يلوح عليه
التردد].

الوالي : انزع الشك والتردد من قلبك. ولا تنس أن أباك أنقى
رحم أمك قبل أن تلدك حين تزوجها، وزفها. لم
يباشرها، أو يلامسها أربعين ليلة حتى علم أن لم يبق
في جوفها أثر مما أكلته من قبل، وتناولته فيما عبر من
الأيام التي كانت في بيت والدها خشية أن يكون
دخل جوفها طعام أو شراب منته الحرام. اخرق
ثيابك، فما هي إلا قشرة ترميها.

[يبدأ عبد الله بخرق ملابسه، وارتداء المرقعة. فيما يدور
الوالي حول نفسه، وهو يردد الله..]

عبد الله : (وقد تسربل بالرقعة) ثم ماذا أفعل!
الوالي : الآن تبدأ المشاق والأهوال. عليك أن تتسلخ من
نفسك كما تتسلخ الحية من جلدها.

عبد الله : كيف!
الوالي : أرشدتك إلى البداية، فابدأ.

[يخفتي الولي. يتريث عبد الله قليلاً ثم يبدأ بالدوران
حول نفسه وهو يردد : الله.. تكون الحركة بطيئة، ثم
تسارع تدريجياً، فيما تتلاشى الإضاءة].

الخادم : أن أبقى في الخدمة ياسيدي!
عبد الله : ما عدت أحتاج خدماً يا حارم.
الخادم : هل يعني أنك تطردني ياسيدي!
عبد الله : وهل يستطيع المطرود أن يطرد!
الخادم : إني لا أفهم..
عبد الله : ومن الذي يفهم! إذهب إلى الدنيا التي تناديك،
وعزّس.

الخادم : سيدي.. (يشير له عبد الله بالخروج، يتراجع الخادم
حائراً) لا أستطيع التأجيل. ستفتك بي لو أجملت.
كنت أحلم أن يزيّن حضورك عرسي. (هامساً)
وسيدتها وردة ستكرم علينا وترقص في عرسنا. إني
مببلل الخاطر. ولا أستطيع التأجيل.

[ينتظر عند الباب، وحين يراه مستغرقاً في مهمته،
يخرج. بعد قليل، يظهر شبح ولي يأتزر بثوب أبيض
يشبه الكفن، ويخفي وجهه. حركاته بطيئة، وصوته
رخيم. يسطع، وكأنما يحفّ به ضوء لا نعرف مصدره].

الوالي : الطريق طويل، والزاد قليل.

عبد الله : أهو أبي الذي يتكلم!

الوالي : أبوك من أرشدك. أمرت أن أصطفيك مريداً،
وسأكون لك مرشداً.

عبد الله : طلقت امرأتي، وتشوشت أحوالي.

الوالي : طلقتهما وشهوة. وأحسن الصوفية المجردون، فدع
الزواج لغيرك.

عبد الله : حين أفكر في دناءة حالي، وسوء أفعالي، وقبح
خصالي، تنحصر نفسي وأقنط من رحمة ربي.

الجزء الثاني

المصائر

المشهد الأول

- [في بيت المفتي. المفتي وعبدو].
- عبدو : إنه لا يأكل طعامنا. فهل نواصل حمل الطعام إليه؟
- المفتي : كيف وجدته؟
- عبدو : أعتقد أنه تخيل. ليس لديه إلا هذه العبارات.. ورأس أمي هذا جنون.. لم تكن زوجته.. أحقاً لم تكن زوجته! وهو ما يزال ينتظر فتاويك على المسائل التي طرحها.
- المفتي : ألم تقل له إن الحقيقة في الإجماع!
- عبدو : وهل يعني مايقال له!
- المفتي : إذن دعه يتخبط في خباله. ولا تحمل له الطعام بعد اليوم.
- عبدو : نعم.. فليطو سيدي تلك الصفحة وغبارها. يحق لك أن تهناً بعد أن راقى لك المدينة، وصار الأكابر يمشون بين يديك طالبين رضاك.
- المفتي : نعم.. كانت الخلافات تكبل يدي، وتضغط على مركزي، سنجلو الآن ما لحق بالمنصب من أوشاب، وسيعرف الناس أن سعادتهم في الطاعة، وأن للمفتي جلالاً وسطوة.
- عبدو : ألن تصدر الفتوى التي كنت تنوي إصدارها، والتي يتمناها كل أوادم الشام؟

فراعاً في سريرتي، كدرأ في قلبي. أكانت تلك المرأة
أحبولة إبليس، وأداته؟ لماذا لا يغمرنى الرضا، ويفيض
في جوانحي العرفان! إني فاتر الروح والجسد. لا
أحس للنصر بهجة، ولا للمجد مذاقاً. هل تخلّصت
من أعدائي، كي يأتيني عدو من نفسي! علقت
صورتها في خيالي، وعلق كلامها في ذاكرتي. يالها
امرأة بين النساء.. يارب.. قوني على الصلاة، وانزع
هذا الكدر من قلبي، وطهر روحي من حيل إبليس
والأعبيه. يارب.. نويت الوضوء، ونويت الصلاة
(يعلو صوته أمراً) هاتوا الطشت والإبريق. يارب.. إني
ألوذ بك من فتوري.
[تلاشى الإضاءة].

المفتي : أية فتوى؟
عبدو : أن تحرم البغاء، وتبيح دم الغواني والعاشرات.
المفتي : آه.. هذه الفتوى! أعتقد أن علينا أن نترث قليلاً، وأن
نتدرج في الشدة. هناك أمر أريد أن تتولاه شخصياً.
عبدو : ليس على الشيخ إلا أن يأمر.
المفتي : أريد أن تنسقط لي أخبار وحركات زوجة النقيب بعد
طلاقها. ولا ينبغي أن تثير الانتباه، أو يلحظ أحد
غرضك.
عبدو : لا تشغل بالك. سأعرف لك ماذا تأكل، ومتى تنام.
[يعلو أذان الغروب].
المفتي : الله أكبر..
عبدو : لا إله إلا الله.. أريد شيئاً آخر يا سيدي! هل أساعدك
في الوضوء!
المفتي : بارك الله فيك.. لا أريد شيئاً.
[يخرج عبدو].
المفتي : أستغفر الله العظيم.. يارب.. إني أحس في نفسي
فتوراً عن الصلاة، ولا أدري لماذا يارب.. لا تستكثر
نعمتك علي، ولا تجعلني من الجاحدين. يالهامك
دبرت، وبفضلك نلت ما كنت أصبو إليه. أزرنتني
حتى ترقيت في المراتب. وحصرت قلوب أعدائي.
وحسادي، فانزاحوا عن دربي. يارب وأنت الوهاب
الكريم، غمرتني بالنعم، ويوأتني المجد الذي تشوقت له
نفسي. ولم يبق أمامي إلا خطوات يسيرة، وأصير مفتي
السلطنة في مركزها وعاصمتها. يارب نولتني هذا
كله، فلم تحرمني الرضا؟ هل أضلني إبليس..؟ أحس

- مؤمنة : لا أريد شيئاً.
- وردة : هل تكسرين خاطري؟ ياالله يا بسمة.. (تخرج بسمة.
يرين صمت، ووردة تتحاشى أن تلتقي عيناها بعيني
مؤمنة) إذا أردت أن تسألني.. لا أدري.. إني مرتبكة.
أتريدين أن تسألني.. عني وعن.. السيد النقيب؟.
- مؤمنة : لن أسألك عن علاقتك بالسيد النقيب.
- وردة : على كل.. لقد انتهت. كانت شيئاً عابراً مما يفعله
كل الرجال. وأنا واثقة أن منزلتك في نفسه لم
تترجح، ولو مقدار شعرة.
- مؤمنة : هذا لا يعنيني. أنا الآن طالق، وما بيني وبين عبد الله
انتهى إلى الأبد.
- وردة : طالق!! وهل كان ذلك بسببي! أم انتي الله، وشواني
بناره إن كنت السبب.
- مؤمنة : لا.. لم تكوني السبب.. لقد تهيأت الفرصة لكي
يحدث ما ينبغي أن يحدث. ليس لدي ما أومك
عليه، بل وأشعر بالامتنان لك.
- وردة : ولم الامتنان!
- مؤمنة : ربما لأنك هيأت الفرصة لكي يحدث ما حدث.
- وردة : أكنت تكرهينه!
- مؤمنة : لا.. لا أكرهه.
- وردة : إن عبد الله رجل يُفتقد.
- مؤمنة : هل تفتقدينه!
- وردة : وما الفائدة؟ تعلمت ألا أتحسّر. حين تنتهي الحكاية،
أدير ظهري، وأتابع طريقي. مالنا.. لا مواخذه، حتى
الآن لم أعرف سبب تشريفك لي.

المشهد الثاني

- [في بيت وردة. وردة ومؤمنة].
- وردة : (مخرجة وقلقة) نورت البيت. اي والله.. أضاء البيت
نور. غسلت الملاية، وبخرتها بالمسك. لو أرسلت
الخادمة.. هذا شرف لا أستحقه.. أن تأتي بمقامك،
وشرفك إلى بيتي.
- [تتاوّل وردة الملاية المطوية والملفوفة بعناية، وتقدمها
لمؤمنة].
- مؤمنة : لم أزرِك كي أسترِد الملاية.
- وردة : (يزداد حرجها) طيب.. تفضلي. (تحاول مؤمنة أن
تجلس على إحدى الطنافس المصفوفة في المكان، فتأخذ
وردة بيدها) لا.. لا.. الجلسة هنا أكثر راحة.
(تجلسان، تصعد وردة الجلوس في مكان أوطأ، بينما
تفرض مؤمنة في المكان بعينين لاهبتين) هل أنت
مرتاحة؟
- مؤمنة : لا تشغلي بالك.. فأنا مريحة. إن بيتك لطيف.
- وردة : هو على قدّ الحال. ربّته، وزيّته بمقدار ما أستطيع.
- مؤمنة : إنه كالعش.. ملوّن ودافئ.
- وردة : هذا من ذوقك. (تصفق بيديها عدة مرات. تظهر
الخادمة بسمة) أين الضيافة يا بسمة؟ هاتي مايليق.. ولا
تسوّدي وجهي أمام ست الأشراف.

مؤمنة : جئت أرجو أن تأخذي بيدي. أريد أن أنضم إليك،
وأن أغدو واحدة من غواني هذا البلد.
[تهب وردة واقفة، وكأنما لسعها عقرب، تحملق بمؤمنة
مبهوطة وغاضبة. تبادلها مؤمنة نظرتها دون أن تنكسر
عينها].

وردة : ماذا قلت؟

مؤمنة : أريد أن أصير غانية مثلك.

وردة : (تنفجر) أجئت تتفقسين علي! أجئت كي تزدبريني،
وتحطبي من شأنني! هل كُتب علي أن يلاحقني بيتكم
بالإهانة طوال عمري! من دَرَبني، وأسلكني هذا
الدرب! أتذكرين.. لا.. لا تذكرين، أولعلك لا
تريدين أن تذكري. ألم أكن خادمة لديكم! ألم يكن
الشيخ الجليل.. أبوك هو الذي علّمني طبقات الفسق
ومراتبه قبل أن أحيض، ثم تناوب علي الإبن مع
الأب، ثم ألقوا بي في الشارع لأن العرق دساس،
ولأن حركاتي تنم عن فسق مبكر! طويت صدري
على سري. ذقت المرارة والإهانة والشقاء ولم أجرؤ
على البوح بسري. وها أنت بعد هذه السنوات، تأتيين
بجلالك لكي تنكأي الجرح القديم، وتبصقي علي في
بيتي.

مؤمنة : (تهض بدورها مذهولة، وكأنها تحدّث نفسها) وإذن..
أنت واحدة منهن. من ذلك السرب الطويل الذي
تعاقب علي حضن الوالد. والشيخ الجليل لا تشبع
طبيعته، ولا تستكين.

[تدخل بسمه حاملة صينية كبيرة عليها قهوة ومكسرات

وفواكه مجففة].

بسمه : أين أضع الصينية يا معلمتي؟

وردة : ضعها أنى شئت.

[تلاحظ بسمه الجوّ المتوتر، تضع الصينية، وتقف
منتظرة].

وردة : (بغضب) ماذا تنتظرين! اخرجي..

[تخرج بسمه، تتحاشى المرأتان تبادل النظرات ويرين
على الجوّ توتر مقل بالغضب والدهشة].

مؤمنة : وخزنتي الصدفة. ولكن لا شيء يحكي عن ذلك
البيت المكلس بالشهوات والرياء، يمكن أن يدهشني.

وردة : إذن، أنت تعرفين قصتي!

مؤمنة : لعلي لم أسمع عنك بالذات. ولكن أعرف قصصاً
كثيرة مما كان يدور في ظلمات ذلك البيت.
صدقيني.. لم يخطر ببالي أن أهينك، أو أن أمسّ
مواجعك.

وردة : لا تحاولي أن تمكري بي. وقولي على بساط أحمددي
ماذا تخفين وراء زيارتك.

مؤمنة : قلت لك على بساط أحمددي.. أريد أن تساعديني
كي أصير غانية.

وردة : أتحاولين مكايده عبد الله..!! أعوذ بالله من كيد
الكبار.

مؤمنة : ينبغي أن تصدقيني.. أنا لا أعرف اللف والدوران،
ولم أعود على تدبير المكائد. إنني أعني ما أقول،
وليس هناك ما يدفني إلا رغبتني وهواي.

وردة : حلفتك بالله.. هل أنت جادة!

- ولكن لا رجوع عن القرار. توسمت فيك ودأ خفياً،
فلا تخيبي رجائي. إذا لم تقبلي مساعدتي، فسألجأ
إلى معلمة أخرى.
- وردة : ما أعجبك يا امرأة.. من أين يأتيك هذا التصميم كله؟
مؤمنة : هذا أمر يصعب تفسيره، ويطول الخوض فيه. يكفي
أن تعلمي أنني شديدة التصميم، وأني سأنفذ ما
صممت عليه.
- وردة : يا بنت الحلال.. ما حدث بينك وبين عبد الله يمكن
إصلاحه.
- مؤمنة : أنا طلقت عبد الله، ولا شأن له بهذا الأمر.
- وردة : تمهلي بعض الوقت.. ومع الوقت قد تستردين
بصيرتك. إنك لا تعلمين في أي موحلة ترمين
نفسك. أنتظنين أن حياة الغواني رغد ونعيم! إنها حياة
مغمّسة بالقهر والعنف والخوف. نخاف من يحميننا،
ونخاف من يشتهيننا، ونخاف غدنا. مالذي تظنين
أنك فاعلة، وأنت ما أنت. لك من جمالك ومركزك
حصانة، وألف من يتمنى قربك. إذا لم يكن ما
تظليبه نزوة عابرة، فإنه جنون ما بعده جنون.
- مؤمنة : ما أريده ليس نزوة. أرجوك أن توفري نصائحك،
لأنني عجمتها، وعجمت ما هو أكثر منها قبل أن أعزم
على المجيء إليك.
- وردة : لا مجال لإقناعك!
مؤمنة : لا.. لا مجال. تديرت الأمر، وقررت.
وردة : وتريدين أن أكون المرشدة والمعلمة!
مؤمنة : إذا رغبت.

- مؤمنة : كل الجد يا وردة.
وردة : (ترفع عقيرتها، وتصفق بيديها) الله.. الله.. تعالوا،
واسمعوا. ست الأشراف تريد أن تصير غانية. إنها
تحسدنا علي هنائنا، وتريد أن تنازعنا فيه. وهل تظنين
بسلامتك أن الكار بيت داشر، ومفتوح لكل من لها
فرج ونهدان!
- مؤمنة : لهذا طلبت مساعدتك.
وردة : ولماذا أساعدك؟
مؤمنة : لأنني أتوسم فيك السماحة. ولأنني لن أضيع لك
تعباً. أعذك يا وردة أن أكون رفيقة لا تجحد المعروف.
- وردة : اسمعي يا بنت الحلال.. هذا الكار لا تدخله الواحدة
منا، إلا بالاضطرار والمطاحنة والبهدلة. أما أن تأتي
امرأة تملك كل شيء، وليس لديها أي دافع إلا المزاج
والشهوة، فإنها تهيننا جميعاً، وتغيب العذابات التي
تحملناها. كان يمكن أن أخرج من الباب، وأصيح في
كل الطرقات.. ست الأشراف تطلب الدخول في
سلك الشرايط. وكان يمكن أن أثار بالشماتة
والفضيحة لحياتي كلها. تصوري.. هل خطر ببالي أن
الفرصة ستأتي، وسأرى بعيني ابنة ذلك الرجل الذي
رمانني إلى هذا الكار، تتوسل إلي كي تدخل فيه!
حقاً.. إن الدنيا لا تخلو من العدل. لا يا بنت
الحلال.. رغم كل شيء، لا يطاوعني قلبي على
الانتقام. خذي ملايتك، وانزعي وسوسة الشيطان
من قلبك.
- مؤمنة : يمكنك أن تشمتي، أو تتأري، وهذا أقل من حقل.

وردة : ستكونين بنتي، وحقي عليك الخضوع والطاعة والولاء. ياالله! ولكن من يصدق.. أن يأتي يوم، وأصبح سيدة لست الأشراف! وأن تصير ابنة ذلك الشيخ الجليل بنتي في الكار! هل أنا أحلم..؟
مؤمنة : لا.. إنك لا تحلمين يا معلمتي.

وردة : (وهي تصفق بيديها) طيب.. دعينا نبدأ.

مؤمنة : فلنبدأ بالاسم يا معلمتي.
وردة : نعم.. سنختار لك اسماً يرق كالمصباح (تدخل بسمه) نادي البنات يا بسمه، وهاتي الشرابات.

مؤمنة : هل تسميني نجمة!

وردة : هو اسم جميل. دعيني أفكر.. إنني أبحث عن اسم يرق في حروفه ولفظه. يا قوته.. لا.. اللفظ كامد. ألماسة.. نعم، هذا يشع. ما رأيك! هل أعجبك!

مؤمنة : نعم.. إنه يشع. ولم لا! صار اسمي ألماسة.

[تدخل بسمه، ووراءها ثلاث من بنات الهوى يتدافعن].

وردة : يا بنات.. لدينا تلييسة. هذه الفتاة اسمها ألماسة. تريد أن تدخل الكار، وأن تتعلم فنونه. لن نسأل عن حكايتها، ولا يهمنا أن نبحث في ماضيها. إنها ألماسة، وأعتقد أنها ستكون بنتاً طيبة وبارعة. سنشرب شراباتها، ونحتفل بتلييستها. هاتي ثوب الفتنة يا بسمه. [بسمه تبدو غائبة في ذهولها ودهشتها].

وردة : مالك! هل أصابك الصمم!

بسمه : (وكأنها تصحو من كابوس) نعم.. نعم..

وردة : هاتي ثوب الفتنة.

[تحيط البنات بألماسة، ويبدأن بنزع ثيابها على إيقاع غنائهن].

البنات : (يغنين ووردة تقود الغناء وحركاتهن)

اسم الله.. اسم الله يازينة

يا وردة جوة الجنينة

زهر القرنفل يا عروسة

والورد خيم علينا

قومي العبي بحبل اللولو

وافردي شعرك على طولو

خليهن يحكو ويقولو

آه يا حلاوة يا عسلية.

قومي العبي بعرق الألماس

واللولو حارس هالبزاز

الله يجيرك من كلام الناس

آه يا حلاوة يا عسلية

[تدخل بسمه حاملة ثوب الفتنة وهو ثوب يميز وردة، وترتديه للإغراء. تغدو ألماسة شبه عارية. لم يبق عليها إلا بعض الملابس الداخلية. أفرد البنات شعرها، ومشطنه، فيما انهمكت وردة بتزويقها. حين تصبح جاهزة، يلبسها مع الغناء والرقص ثوب الفتنة]

البنات : عالدالي.. عالدالي

هالنقلة نقلة غزالي

لبست شلحة وشلحت شلحة
وتحت الشلحة شي ضوالي.
عالدالي عالدالي
هالنقلة نقلة غزالي
لبست بدلة وشلحت بدلة
تحت البدلة شي ضوالي.

[تم التليسة]

وردة : دعيني أرى.. تفتلي قليلاً.. الله.. خزيت العين. بدر
واكتمل. انظري إلى نفسك بالمرأة يا أماسة.
[تنظر أماسة إلى نفسها بالمرأة نظرة غريبة ومسحورة.
تقترب منها وردة].

وردة : هل ألح ندماً في عينيك يا أماسة!

أماسة : لا.. لا ندم. هذا كالسحر. إني مبهورة.

وردة : هاتي كؤوساً وشراباً حقيقياً يا بسمة. بالخمير
سنساعدنا على تخطي العتبة. وبالخمير سنبارك
الاسم والصحبة. وبالخمير سنسقي البهجة والموجة.
ياالله يابنات..

يا قضاة مغبرة ويا قضاة ناعمة

شوف عيني شوف

[تبدأ بالرقص، والبنات يرافقنها بالغناء والتصفيق. بعد
عدة دورات تسحب أماسة إلى الرقص لتحل محلها.
بعد تردد قليل، تبدأ أماسة بالرقص بينما يشتد التصفيق.
ترافقها وردة وكأنها تعلمها كيف تجعل أداءها أفضل].
[تلاشي الإضاءة].

المشهد الثالث

[عباس. يدخل العفصة حليق الشوارب، ناعم الوجه،

يتعمد التخثت بحركاته وكلامه]

عباس : (يرمقه باستغراب ونفور) قاتلك الله.. ماذا فعلت
بنفسك؟

العفصة : فكرت أن أقدم لك هدية يانور عيني.

عباس : أي عفريت ركبك!

العفصة : لم يركبني إلا هواك.

عباس : وهل قلبت سحتك من أجل هواي؟

العفصة : لا تجعلني أبكي.. أردت أن أحلو في عينيك.

لاحظت أن ولعك يخف، وأنتك تبتعد عني، فأصابني

فزع رهيب. وفكرت.. كيف أرضي حبيبي.. كيف

أرضيه..! وخطر لي أن أقدم لك أئمن مالدي وآخر

ما يميزني في عيون الناس. (يخرج من جيبه منديلاً

حريراً معقوداً بأناقة، ويقدمه لعباس). تفضل يا أبا

الفهد.. إنها هديتي لك.

عباس : ما هذا؟

العفصة : افتحها، وسترى ما فيها.

عباس : (يفك ربطة المنديل، فيظهر مافيه) أهي شواربك!

العفصة : نعم.. هي شواربي، أهبها لك. ويمكنك أن تعلن في

طول المدينة وعرضها أن شوارب العفصة ملكي، وأن

العفصة كله ملكي.

عباس : أعوذ بالله.. مالذي دهاك يا بني آدم!

العفصة : أخاف أن تهجرني. بعد أن كشفت روحي، وأذقتني مسرة كنت أبحث عنها طوال عمري، لا أتحمّل أن تتعد عني. إنك لا تعلم ماذا فعلت بي! لقد غيرتني، وقلبتني من أصلي.

عباس : ألم تكن تريد السترة، وتخاف البهدة!

العفصة : لم أكن أعرف سطوة الحب وجنونه. السترة! وهل يستطيع العاشق أن يستتر! لم أعد أبالي بشيء. إن جفوة منك أشد علي من ضياع اسمي وكرامتي ومكاني بين الناس. لا يهمني أحد.. لا يهمني إلا أنت. وأريد أن ترغبني، وأن تجدني حلواً وطرياً بين يديك. انظر.. نفت شعري كله. ساقاي ويديا وكل شيء. ولو شئت أن تقطع لحمي، فإني مباح لك.

عباس : أعوذ بالله.. وهل تعتقد أنك ترضيني إذا تخنثت!

العفصة : ومالذي يرضيك؟ ألا تفضلني ناعماً وطرياً!

عباس : إنك تثير نفوري. ما أنت الآن إلا علق يتدرب على الجون.

العفصة : إني علق لك. وأردت أن تعرف أنني تحولت، وأن لدي الشجاعة كي أعلن تحولي، وأواجه الناس به. قل لي كيف تريدني؟

عباس : أردت أن تظل رجلاً إلى جانبي وبين يدي.

العفصة : لا يهمني ما أكون. ولكنني لك وبين يديك.

عباس : مع هذا التخنث السافر، أحجل أن تكون إلى جانبي.

وأحجل أن يعرف الناس أن لي صلة بك. بهذه الهيئة، ما أنت إلا سمس آخر.

العفصة : لا تقتلني يا أبا الفهد. ما فعلت هذا إلا من أجلك.

وأنت تعرف أن ما فعلته باهظ التكاليف علي. إنه في بلدنا كالموت أو أسوأ من الموت. ولكنك تتظاهر بالغضب والنفور، لأنك تبحث عن حجة كي تقطع ما بيننا (يفص وينخرط في البكاء) إني لا أتحمّل هجرانك.. إني لا أتحمّل أن ترميني بعد أن غيرت تكويني. غدوت كالماء في صفائه ووضوحه. كيفما نظرت إلي، ستجدني واحداً. هيئتي هي سريرتي، وسريرتي هي هيئتي. ألم تقل إنك تنفر ممن له مظهر ومخبر. وما فعلته هو أنني أظهرت مخبري، ولم يبق لدي ما أكتمه أو أخفيه. أردت أن أقوي أسباب الود بيني وبينك، وأن أعترف دون مداورة أو تستر أنني أعشقتك. هذا العشق هو الذي جرأني على نفسي وعلى الناس، وهو الذي يمدني بالشجاعة والحياة.

عباس : ما هذا الهبل الذي تسكبه في أذني؟ إنك تتكلم مثل قحبة قرّحها الغرام والحرمان.

العفصة : أتكلم كما يتكلم العاشق.

عباس : وتحدث عن العشق وأكل الهوى..! لا يكون بين الرجال عشق وغرام.

العفصة : ماذا كان بيننا إذن!

عباس : أتريد الصراحة!

العفصة : نعم.. حان وقت الصراحة ولو كان فيها مقتلي.

عباس : ما كان بيننا هو شهوة تزول مع قضاء الوطر. وكان

يلدُّ لي أن أعلو رجلاً محسوباً على الزكزية، وأن أرى قامته تنكسر وتتصاغر بين فخذي. أما الآن، فأني لذة سأجنيها من اعتلاء مخنث رقيق!

العفصة : أتعلم يا أبا الفهد.. إن مواجهة كل زكزية البلد مجتمعين لا يحتاج إلى الشجاعة التي احتجتها كي أفعل بنفسني ما فعلت.

عباس : دعنا من المنفخة.. أهي شجاعة أن تمسخ نفسك، وتصبح عزة لمن يعاشرك أو يقترب منك؟

العفصة : تخليت عن كل ما يخصني، لكي أخصك وحدك، ولكي يعرف الجميع أنني منذور لك. فهل يكون هذا التفاني عزة تخجل منها، وتتحاشاها..! لو كنت تبادلني العشق، لقدّرت ما فعلت من أجلك.

عباس : كلما تحدثت عن العشق، سقطت من عيني أكثر.

العفصة : سقطت من عينك لأنك تريد أن تقطع ما بيننا. لا تظن أنني لا أعرف ما يجري. منذ أن طلبت منك قحبة الحسب والنسب أمانة أن تكون حاميتها، بدأت تبتعد عني وتظهر الفتور لي. لا يزعجني أن تكون حاميتها. وسأعمل بين يديك خادماً وسنداً، ولكن لا تقطع ما بيننا. لا أعرف ماذا أفعل بحياتي إن تقطع ما بيننا.

عباس : أشعر بالنفور، ولم يعد يلائم سمعتي أن تكون بيننا صلة.

العفصة : أرجوك تمهل..

عباس : هذا قراري، ولا تذلل نفسك أكثر.

العفصة : أكنْتُ مخدوعاً يا عباس! ألم يكن لديك إلا هذا

المظهر الذي تشبث به، وكأنه وجودك وعلامتك! لن أذل نفسي أكثر. ولكن لدي رغبة صغيرة أود أن تليها قبل أن نفرق.

عباس : وما رغبتك؟

العفصة : أن تنازلي في ليّ الذراع.

عباس : أتريد أن تمتحن قوة ذراعي!

العفصة : أعرف قوة ذراعك، ولكن لم أعد أعرف هل بقيت في ذراعي قوة.

عباس : وفر على نفسك هذه المهانة.

العفصة : هذه المهانة هي رغبتني الأخيرة، فلا تخذلي.

عباس : سأسحقك.

العفصة : سحقته ما هو أهم من ذراعي، ولن يزيدني ألماً أن تسحق ذراعي. تعال..

[يجلسان حول طاولة. تتماسك قبضتهما، ويبدأ كل منهما في الشد كي يلوي ذراع الآخر. يستمران فترة طويلة ولا يفلح عباس في ليّ ذراع العفصة. تحمرّ أوداجه، ويبدو الغضب على وجهه].

العفصة : هل نواصل!

عباس : (محتقناً) لا.. هذا يكفي.

العفصة : (قبل أن يرخي قبضة عباس، ينحني بلطف، ويقبلها) الآن.. وداعاً يا عباس.

عباس : (وهو يتناول المنديل الذي يحتوي على شوارب العفصة) خذ هديتك قبل أن تخرج.

العفصة : هي لك ولا يهمني ما تفعله بها.

[يخرج العفصة]

عباس : ماذا دهاني؟ من أين جاءته هذه القوة؟ كاد هذا
المخنث أن يلوي ساعدي. لعنة الله عليه. لقد أفسد
مزاجي.

[يرمي الشوارب على الأرض، ثم يدوسها بغضب.
وكما لو كان الغضب يتصاعد في صدره، فإن قدمه
تدوس الشوارب بحركة متصاعدة العنف].
[تتلاشى الإضاءة].

المشهد الرابع

[في بيت عبد الله. حلقة ذكر في أوج احتدامها. وعبد
الله في وسط الحلقة يدور ويترنح وهو يردد.. الله..
الله.. عيناه زائغتان، وملامحه تتم عن الغياب. وبعد
قليل يسقط على الأرض، ويبدأ جسده اختلاجات لا
إرادية ومتلاحقة. حين يهدأ جسده ينسحب الحضور
انسحاباً خفياً. يظل عبد الله وحيداً، راقداً على الأرض.
يدخل الولي.]

الولي : أين بلغت!
عبد الله : (يرفع رأسه ويتلجلج صوته) لاشيء.. وهن في
الجسد، وغبش في العين.
الولي : إنك تبدأ الطريق. والطريق طويلة.
عبد الله : (يعتدل في جلسته) أشواق محرقة، والوجد يملأ
جوانحي. أحياناً.. أحس أنني أقرب.. أن بارقة
ستسطع، وأن النور سيغشاني. ثم يغرق كل شيء في
الظلام. وأعود إلى فقري.
الولي : لا نصل إلى النور إلا بالسوانح النورية.
عبد الله : وكيف السبيل إلى نيل هذه السوانح!
الولي : البعض ينفق السنوات الطوال، ويظل لا يبرح مكانه.
عبد الله : لا تضعف همتي. تحوّل وجددي إلى حصر يغمُّ
صدري. لا آكل إلا بلعة من الطعام. ولي في كل يوم

ثلاثمائة ركعة وثلاثون ألف تسيحة.

السولي : أتمنّ الحق يا عبد الله؟

عبد الله : معاذ الله ياسيدي.. ولكن أشعر أن بيني وبينه حجاباً سميكاً، لا يكاد يرق. حجاباً يوجع قلبي، ويملأني بأساً من نفسي.

السولي : نفسك هي حجابك، والنفس هي أصعب ما يعالجه المرید.

عبد الله : دعوته دعاء من لا يرجو سواه. وناديته بالاستغاثة، فلم يلتفت إلى صدق دعائي ويأسي من نفسي.

السولي : دعاء السجين في نفسه لا يخلو من الأنانية والشوائب.

عبد الله : أما من رسالة أو كتاب؟

السولي : لا خير في الكتب. من جاع جوع القوم وسهر سهرهم، رأى ما رأوه.

عبد الله : أما من نصيحة؟

السولي : أهمل بدنك حتى يتراكم عليه الوسخ، وعفّر وجهك ومرقعتك حتى يزدریک من یراک. لا تقصّ ظفراً ولا شعراً، واترك القمل، يتناثر على وجهك وثيابك. ثم ادخل إلى حيثك الذي تُعظّم فيه حتى ينظر إليك أصحابك، ويسقط باللوم جاهك، ويلاحقك الصبية بالتقريع والسخرية.

عبد الله : ألا يوجد سبيل آخر؟

السولي : ابتدء بهذا قبل كل شيء حتى تُسقط جاهك، وتُذل نفسك، ثم عد إلى معتزلك خفيفاً، لا تملك شيئاً ولا يملكك شيء. وكرر النداء..

عبد الله : وهل يغيبني لو فعلت!

السولي : حين تترك نفسك وراءك، تجده أمامك وبين عينيك. فهل تفعل؟

عبد الله : نعم.. سأفعل. لأن الوجد يهلكني.

السولي : إن تعظيم الناس يصرف عنه يا عبد الله.. وإن الدنيا لقمة مسمومة. ومن يحب لا يزعه لوم اللائمين. ولا تنس أن هناك عشاقاً سبقوك، كانوا يبولون الدم إذا ذكر الله عز وجل. وسعيد من يرقى المقامات، ويصل إليه، فيفنى في غبطته.

[يختمني الولي]

عبد الله : ما أعظم أشواقني. اسقوني يا ثقاتي. قَطِّروه واسقوني. أسكروني حتى أفقد بصر عيني، وأبصر بعيني ذاتي. الله.. الله.. الله.. الله...

[تتلاشى الإضاءة].

يلطخ البيت وأهله! إني أشعر بالامتنان لأن المفتي رضي أن تدخلني بيته. ما الذي حل بك! كيف سيطر عليك إبليس، وساقك كالعمياء إلى الرذيلة والفاحشة؟ أين أواربي وجهي، وكيف نواجه الناس! إن فاحشتك لا يكاد يصدقها الخيال. غدونا سيرة المدينة ومضغة في أفواه الرعاع.

المأسة : ما أفعله لا يخص أحداً سواي.

الشيخ محمد: وترفعين عينيك في وجهي! من أين تعلمت هذا الاستهتار! في بلدنا سمعة الحرمة تخص أهلها قبل أن تخصصها. إنها بلاء على الأب والأخ والزوج والقريب. أهذه هي التربية التي أنشأتك عليها؟ أهذا هو التعليم الذي ميّرتك به عن بنات الآخرين؟ ماذا أصابك؟ لا يمكن أن تفعل هذا الأمر الفظيع إلا إذا كنت مسكونة أو مجنونة!

المأسة : نعم أيها الرجل التقى.. إني مسكونة. مسكونة بالأشباح التي كانت تتخفي في القمة. مسكونة برائحة الشهوة التي كانت تملأ أعطاف البيت. كنت أميز الروائح التي تعرفتها طفلة، والتي أدمنتها بالغة. نعم.. مسكونة بالهمس المكتوم والفضائح المخنوقة. أتحدثني أيها الرجل التقى عن التربية؟ هل تعرف ماهي النار التي وشممت جسدي، وأنضجته قبل أوانه! إنها نار شهوتك التي لا تفتري، ومعها شهوة بكرك الذي تفاخر به. إنها نار الحرقة في دموع أمي، وصممتها الموجوع. إنها نار عينيك اللتين كانتا تلحقان بي في الدار وبيت الخلاء ومحل النوم والحلوة.

المشهد الخامس

[في بيت المفتي. الشيخ محمد رسمي الخزار وهو والد مؤمنة التي صارت أماسة. المفتي. أماسة]

المفتي : زيارتك مشرفة وكريمة ياشيخ محمد. وإن كنا نودّ لو أن دواعيها مختلفة. هذه هي ابنتك. أرجو الله أن تهديها إلى الصواب، وأن تسترجعها للعيش في بيتها وفي كنف أهلها.

الشيخ محمد : مشكور سعيك وترحيبك ياشيخ قاسم.

أماسة : ألا تتعب من المكر والترتيب يا مفتينا!

المفتي : لا يلام فاعل الخير يا مؤمنة.

أماسة : اسمي أماسة. وأمرك مع الخير يحترني مكره والتواؤه.

الشيخ محمد : حقاً.. لقد تجاوزت في النشوز كل حد. ليس لك كلام وأنا موجود في الحضرة. هل تتكرم ياشيخ

قاسم، وتركنا برهة على انفراد!

المفتي : طبعاً.. طبعاً.. البيت لك. وأوصيك بالبتني أن توفي

أباك حقه من الطاعة والتوقير.

[ينسحب المفتي، ويترك الشيخ محمد مع ابنته].

أماسة : هل وسّطت المفتي كي تلتقي بي!

الشيخ محمد : لم يكن هناك سبيل آخر.

أماسة : لماذا لم تطلب مني أن أوافيك في البيت!

الشيخ محمد : أنت تأتيين إلى البيت! ألا تدركين أنك صرت عاراً

الشيخ محمد : احرصى.. قطع الله لسانك. ما أنت ابنتي التي أعرفها. إن إبليس هو الذي يسكنك، ويتكلم من فمك.

ألماسة : وهل كان إبليس هو الذي يعلم الخاديات طبقات ومراتب الفجور، ويفضهن قبل البلوغ، ثم يلقي العبء على الأم التي تذوي كي تكتم الفضيحة، وتغطيها. أتعلم أن الغانية التي شغلت الشام، وسبت لب نقيب الأشراف كانت خادمة في بيتنا، وكنت معلمها الأول في فنون اللذة والفجور!

الشيخ محمد : (يصفعها بعنف وهو يرتعش انفعالاً و غضباً) احرصى.. لعنة الله عليك. هل فقدت كل أدب؟ هل فقدت كل حياء؟

ألماسة : لا تلم إلا نفسك ياأبي. أنت من مزق حياتي، وأنت من زرع الغواية في نفسي. نعم لفتتني كلمات، لكن ماقيمة الكلمات وأنا أبصر كيف تمارسها، وكيف تختلس النشوة من أضدادها؟ حفظتني القرآن، وعلمتني في الوقت نفسه كيف يكون ترتيل القرآن ستاراً للتهتك والفسوق. إني ابنتك وأهوائي ثمرتك، وما أفعله الآن تخمّر، ونضج بتلك الرائحة الحريفة التي كانت تنبعث من ظلمات البيت، وتنتشر في أرجائه.

الشيخ محمد : ملعونة أنت حتى يوم الدين. أتساوين نفسك بالرجال..؟ لولا حرمة المرحومة لقلت إنك لست من لحمي ودمي.

ألماسة : إني من لحمك ودمك ياأبي. ولم أذكر ما ذكرت كي

ألموك أو أدينك. أردت أن تكون مواجهتنا في الضوء، وأن يكون حوارنا صريحاً لا يمؤه نفاق أو رياء. علمتني كيف أتلمس جسدي وكيف أكتشف بينايه. ورغم أنك تستنكر ذلك، فإني أعتبر ما تعلمته فضلاً كبيراً وكنزاً ثميناً.

الشيخ محمد : كأنك تنباهين بالنشوز والدّعارة! اسمعي.. إما أن تتوبي وتجنبي شييتي هذا العار، وإما أن تهلكي.

ألماسة : لا تهددني يا أبي.

الشيخ محمد : إني أخيرك، ولولا رقة الشيخوخة لما أمهلتك حتى الآن.

ألماسة : لا تنس يا أبي أن الفضائح ملفوفة بأغشية رقيقة. وإن أصابني مكروه، فإن وردة ستمزق الأغشية، وستعلن الفضيحة في كل المدينة، سيكون عليك أيها الرجل التقى أن تواجه بدلاً من البلاء بلاءات كثيرة.

الشيخ محمد : أهذا هو جوابك لأبيك؟

ألماسة : تهديدك هو الذي أملى جوابي. أبي.. عشت هذا العمر الطويل مستوراً. وكنت بارعاً في تغطية أفعالك، ومحو الشبهات حولك. وأعتقد أنك تستطيع رتق نشوزي، والحفاظ على سمعتك العاطرة بعيداً عني. وفي النهاية، ألا نعرف أن أحداً لا يحمل وزر الآخر، وأن لكل نفس ما كسبت، وعليها ما اكتسبت؟

الشيخ محمد : لاشك أن أمك تن في قبرها.

ألماسة : لا تذكر أمي. من جعلها تن طوال حياتها، لا يحق له الآن أن يتباكي عليها.

الشيخ محمد : متى ريت في صدرك هذا الحقد وهذا الجحود؟

أتريدين عقابي! أتريدين عقابنا جميعاً، لأن زوجك غرته الجهالة، وأخطأ في حقك!

ألماسة : لا أحاول الانتقام يا أبي. وزوجي لم يخطيء في حقي.

الشيخ محمد : إذن أنت ضحية عمل أو رصد. هناك من أعمى بصيرتك. عودي إلى رشدك يا ابنتي، واستري شبيهة أهلك. سنقول إن مسأ أصابك. ومع الأدعية والندور، سنشفيك من هذا المس، ونطوي القصة في ذاكرة الناس.

ألماسة : هذا مصيري يا أبي، وسيصيني المس لو تنكرت لمصيري.

الشيخ محمد : أعوذ بالله.. هذه مكابرة إبليس.
ألماسة : ألم يكن إبليس يساكننا! ألم يرافقتنا في الطفولة والصبا!

الشيخ محمد : لا أعرف فيك على ابنتي. إنك بنت زني. لعنة الله عليك.. وإني أتبرأ منك أمام الله. لا ابنة لي ولم يعد لك أب. وسنرى إلى أي منقلب تنقلبين.
[يصدق عليها، ويخرج].

ألماسة : (وهي تمسح وجهها) أيها الشيخ المسكين. هي بذرتك التي أينعت، وبرزت للنور. فعلام الغضب!
[يدخل المفتي منفعلًا]

المفتي : هل أغضبت أباك!

ألماسة : لم نستطع تحاشي الغضب؟ لماذا دبرت هذا اللقاء؟

المفتي : لأن أباك أراد، ولأننا جميعاً نحس بالصدمة والهول. كيف يمكن أن تنزلقي إلى هذا الحضيض! إنك

تذهلينني.

ألماسة : ولم الذهول! ألم تكن تعرف!

المفتي : أتريدين أن تحمليني جريرة هذا العمل الفظيع؟

ألماسة : لا أريد أن أحملك شيئاً. ولكن أعتقد أنني شرحت لك الكثير عن غواية الهاوية.

المفتي : قلت كلاماً لم أفهمه جيداً. وأنا لا أفهمك الآن. إني لا أفهمك أيتها المرأة، ولا أعرف كيف تفكرين، وكيف تسلكين!

ألماسة : ليس ضرورياً أن تتعب نفسك في فهمي.

المفتي : بل أحتاج إلى فهمك. إنك..

ألماسة : (بعد أن استدرك نفسه وتوقف) إني؟

المفتي : (محرجاً) لا أدري.. إذا كان تديري هو الذي رماك إلى هذا المصير، فإني مستعد لإصلاحه. لا أريد أن ينوء ضميري تحت وزر ثقيل.

ألماسة : وكيف ترى السبيل إلى إصلاح ما حدث!

المفتي : إني أعرض عليك الزواج.

ألماسة : أتزوج عاهرة يا شيخ قاسم!

المفتي : لا تسيئي إلي نفسك.. إن معدتك أصيل. وما حدث هفوة يمكن أن نتغاضى عنها.

ألماسة : إنه عرض كريم، ولكن لا أعتقد أنني أستحقه.

المفتي : إنك أفضل من يستحقه. سأنسى كل شيء، سأجعلك المدللة بين نسائي.

ألماسة : وهل تفعل هذا كله كي تريح ضميرك!

المفتي : بل.. ولم لا.. أريد أن يكون ضميري مستريحاً.

ألماسة : لا تحمل ضميرك أي وزر. كنت أنتظر أي صدفة كي

أتبع غوايتي. وما أفعله هو خيارى وحدي.

: ومع هذا.. ما زلت أعرض عليك الزواج.

: لم أطلق زوجي كي أتزوج قرينه.

: أترفضين عرضي!

: مقامي لا يتيح لي أن أستحقه أو أقبله.

: ما أنت أيتها المرأة! ماذا تريدن، وعمّ تبحثين؟

: إنني أبحث عن شيء لا يمكن أن يفهمه رجل مطمئن النفس مثلك.

: ومن قال إنني مطمئن النفس؟

: ألم تقل لي إن دخيلتك صافية، وليس فيها ما تخفيه، أو ما تخجل منه!

: ربما قلت.. لا.. لم أعد مطمئن النفس. أخبريني ماذا تريدن، وعمّ تبحثين؟

: سيبدو ذلك غامضاً، ويصعب شرحه. حيث أتأرجح

على الحافة، وتناديني الهاوية، يخيل إلي أنه، وفي لحظة سقوطي، سينبت من مسامي ريش ملون. من جذور

نفسي سيطلع الريش مزدهراً ومكتملاً، وسأحلق في الفضاء كالطيور والنسائم وأشعة الشمس. أريد أن أقطع

الأمراس الليلية الخشنة التي تحفر لحمي، وتقمع جسدي. أمراس مجدولة من الرعب والحشمة والعفة

ومشاعر الدنس والقذارة.. من المواعظ والآيات والتحذيرات والأمثال ووصايا الأسلاف. صفائح

فوقها صفائح، يذبل الجسد داخلها ويضم. أريد ياشيخ قاسم أن أعتق جسدي، وأفك عنه هذه الجبال التي تمتص دمه، وتقمعه. أن يغدو حراً، وأن يستقر في

مداره الذي خلق له، كالورد وأوراق الشجر، كالقمر وأعشاب الأرض، كالغزلان وينابيع السفوح، كالنور وكل ماهو حي في هذا الكون. أحلم أن أصل إلى نفسي، وأن أكون شفافة كالزجاج. ما تراه العين مني هو سريرتي، وسريرتي هي ما تراه العين مني. إن في قلبي مواجد محرقة، وأشواقاً كاوية، من العسير أن أشرحها، أو أجد تعبيراً يلائمها.

: عجيب أمرك يا مؤمنة!

: قلت لك.. اسمي ألماسة، وأنا حريصة على حماية اسمي.

: عجيب أمرك يا امرأة! تقولين مالا يدركه العاقل. ماذا تقصدين؟ هل تزينين الانحلال؟ هل تعتقدين أنك ستجدين ما تفتشين عنه في الدعارة؟ هذا غريب.. هذا شاذ وغريب.. قل لي إن هذا كله ليس إلا نزوة.

: نزوة..! لا يقلب المرء مصيره من أجل نزوة. وفي معايير ينبغي أن يبدو الأمر شاذاً وغريباً.

: لا معايير فقط بل معايير الناس طراً.

: نعم.. وأول المقامات في رحلتي هو أن أرمي وراء ظهري معاييركم. ينبغي أن أتخلل من أحكامكم، ونعوتكم، ووصاياكم كي أصل إلى نفسي. ينبغي أن أتجاوز خطر الانتهاك كي التقى جسدي، وأتعرف عليه. صنعتم مني عورة هشة يمكن أن تنتهكها الكلمة والنظرة واللفتة. وجعلتم دأبكم انتهاك هذه العورة، فصرنا جميعاً زواحف تتناهش في مستنقع من

الأكاذيب والمظاهر والقيود. وأنا يا شيخ قاسم قررت أن أخرج من المستنقع النتن، وأصير بحراً لا يتن. في الدعارة سأخلع عني صفة العورة وشرطها، وسأغدو خارج حدود الخوف والانتهاك. لا أعتقد أنك ستفهمني. وعلى كل لم يعد مهماً بالنسبة لي أن يفهمني أحد.

المفتي : دوختني يا أماسة. في نبرتك وتصميمك ما يرعش بدن السامع. تمدّين يدك إلى المعاصي بتهور لم تسبقك إليه امرأة في هذه المدينة. أعرف أن في صدرك أهواءً عنيفة، ولكن هل أستطيع أن أتركك تمضين في هذا الدرب؟ إن امرأة لها عزمك وقدرتك على الكلام، يمكن أن تفسد سلطنة من النساء. إنك تقبلين مألوف حياتنا، ونظامنا، ومستقبلنا. لا.. لا أستطيع أن أسمح لك.

أماسة : وماذا تريد أن تفعل؟

المفتي : إن سلاح الفتوى يستطيع أن يفعل الكثير.

أماسة : هل أفهم أنك تعلن الحرب؟

المفتي : هذه حرب لا أريدها، ولا أتمناها. اصغي إلي.. من منا لا تراوده في خلوته أهواء وأشواق! من منا لا توسوس

له الشياطين في لحظة الغفلة!

أماسة : أتعترف أن لديك أهواءً ووساوس!

المفتي : (محنقاً) نعم.. إن لدي أهوائي ووساوسي. ولكنني أضببطها، وأكبت جموحها. إن أمرك يهمني، ورغم كل هذه الاعترافات مازلت راغباً بك.

أماسة : ستجعلني أظن أنني بعض وساوسك.

المفتي : لا أدري إن كان وسواساً، أو حمقاً، أو جنوناً. منذ

التقيتك وصورتك تلاحقني. إنك قلق في الفؤاد، واضطراب في الروح. لا أدري ماذا أقول.. ولكن أرجو أن تعقلي، وأن تقبلي عرضي.

أماسة : أهو الحب يا مفتينا!..

المفتي : لا أدري ماهو، ولا تسأليني شيئاً. هل تقبلين الزواج أم لا..!

أماسة : إن طريقتنا مختلفتان. واشواقى لا يمكن أن يليها الزواج.

المفتي : أتوسل إليك.. لا تسرعني في الجواب. تمهلي، وفكري.. إني.. إني أريدك.

أماسة : هذا الاعتراف يمكن أن يشعر أي امرأة بالزهو، ولكن ما العمل.. قلت لأني إن مصيري تقرر. ولا أستطيع أن أهرب منه، أو أتكر له.

المفتي : في هذه الحالة، أنت من يعلن الحرب.

أماسة : لو نشبت الحرب، فستكون هي الأخرى جزءاً من مصيري. حين يترك المرء الحافة ويعوم في الفضاء، يستحيل عليه الرجوع إلى الوراء. والآن وداعاً يا مفتينا.

المفتي : ليس بعد الحافة إلا القاع.

أماسة : (وهي تخرج) هذا احتمال لم يغب عن البال.

المفتي : يارب.. ماهذه المرأة! أين أنزلت، وكيف أهدى هذا الخفقان في روحي! يارب.. إني مأخوذ، وإني عاشق. لم تبق في هذا القلب أي مسرة.. لا شيء إلا الوسوسة والكدر.

[تتلاشى الإضاءة]

المشهد السادس

[في السوق. إبراهيم دقاق الدودة وحميد العجلوني أمام محلاتهما وثمة مارة في الطريق].

حميد : (يصرخ من باب المحل) يا ولد.. أسرع بالشاي.

الولد : (من الداخل) سأحضره حالاً.

ابراهيم : هل تسجل الوقائع المذهلة التي تجري حولنا؟

حميد : والله هذه غرائب تسلب الرشد، ما عرفناها على عهد آبائنا وأجدادنا. تقول حسدنا أنفسنا على الحياة الرائقة التي تميز هذه المدينة.

ابراهيم : أتصدق.. صار النوم يجافيني. كلما فكرت أن مؤمنة بنت الخزار فتحت بيتاً وتسمت أماسة، أشعر بالحصر وبأن حياتنا مقبلة على الفوضى والجنون.

حميد : ياسيدي.. بدأ الجنون فعلاً. لا حديث على لسان أحد إلا أماسة. بدأ العطارون يسمون أفخر عطورهم أماسة. وبائعو الذهب لا يصنعون حلياً إلا كالثي تتزين بها أماسة. وقيل لي.. سينزل إلى السوق حرير اسمه أماسة. لقد جن الناس، وسيطر عليهم ما يشبه السحر الأسود.

ابراهيم : والمفتي..! أليس الواجب أن يتحرك، ويتصدى لهذا الجنون!

حميد : علينا أن نزوره، وتداول الأمر معه. لاشك أن انزواءه

يخفي سرّاً. (هامساً) ياسيدي.. يبدو أن سحر أماسة لطش عقل الوالي نفسه.

[يدخل الولد حاملاً صينية وطلبية صغيرة. يركزها أمامهما، ويصب الشاي لهما].

الولد : شاي أماسة ياسيدي..

حميد : تأدب يا ولد.. ما هذا الكلام!

الولد : كل شيء فاخر اليوم يسمونه أماسة ياسيدي. انظر.. شاي أكرّك عجمي أصلي.

حميد : (وهو يصفعه) انقلع من وجهي.. (يعيب الولد في المحل، وهو يضحك) تفضل ياسيدي.. حتى الأولاد صاروا يلهجون بذكرها، ويتلمظون باسمها. إنها جائحة من الجنون.

ابراهيم : أعتقد أن هذا بعض تأثير الأجنبي. إننا ندخل في فوضى لا أحد يعرف ماذا يكون ختامها.

حميد : معك حق. هذه الجائحة تفوح منها رائحة غريبة.

[يظهر سمس في الشارع، وهو يتقصع في مشيته]

أحد المارة : كيف الشغل ياسميم!

سمس : حنّ طيزك. من كثرة المحلات سكرنا المحل. (يتوقف

قرب حميد وابراهيم) يأهل الإسلام.. هل يجوز ما يحدث! كانت لي تجارة صغيرة على قدّ (ويضرب بيده على مؤخرته) هذه الراجحة. فضاقت عيون الجميع منها. الزكزية فتحوا من الوراء، والأكابر فتحوا من قدام. قولوا أيها الأوامم.. ألا تبور التجارة إذا كثرت البضاعة!

ابراهيم : هل اشتدت المنافسة في سوق البغاء إلى هذا الحد؟

الأولاد : (يعنون ويصفقون) يا عبد الله.. يا مجنون، ضروب الكف وخود الجوز [يقتربون تدريجياً في السوق، والناس تفرج عليهم، وتحول]

عبد الله : (إلى أحد الأولاد) جاء دورك. (يتردد الولد) تعال.. هذه هي الجوزة. نعم.. نعم على الحد. لا تخف، وقؤها. (يصفعه الولد على خده) وهذه هي الجوزة. انظر إذا كانت فارغة، سأبدلها لك.

الأولاد : يا عبد الله.. يامجنون. ضروب الكف وخود الجوز. [يندفع حميد وابراهيم، ينهران الأطفال، ويحاولان تفريقهم]

عبد الله : دعوهم.. فإنهم يفكون أغلالي، وينقذونني منها.
حميد : ممّ ينقذونك أيها السيد، وماذا تفعل بنفسك؟
عبد الله : ناديت بالاستغاثة.. إلهي! أدعوك دعاءً لم يبق له غيرك! فلما عرف صدق الدعاء من قلبي والإياس من نفسي، كان أول ما أورد علي من إجابة هذا الدعاء أن قال.. اترك نفسك وتعال. وحين تركت نفسي، نظرت إلى الخلق، فرأيتهم موتى، فكبرت عليهم أربع تكبيرات.

حميد : لا يجوز ياسيد عبد الله.. إنك تحط من مركز ومقامك.

عبد الله : وددت أن الله تعالى جعل الدنيا بزيتها ومراكزها لقمة واحدة، فأعطاها حتى أنبذها بين يدي كلب، فلا يغترّ بها الخلق.

ابراهيم : طيب.. تعال. لندخل إلى المحل، وتكلم.

سمسم : إنها كالحمي. وإذا لم يسعفني رجل فاضل مثلك وأجره عند الله محفوظ، فإن العنكبوت سيعشش في دكاتي ومهجتي.

حميد : اذهب قاتلك الله..

سمسم : يا حميد أفندي.. أنت لا خير فيك. لولا الجزر لكان حالك صعباً مع أهلك.

حميد : (يهب غاضباً) تفو عليك وعلى مراك.. امش من هنا.

سمسم : لا عليك يا حميد أفندي. ألا تحتمل مزحة صغيرة! إنكم لا تؤاجرون، ولا تؤاسون. ألا أقصُّ عليكما خبر العفصة!

حميد : اذهب ياسمسم. لا نريد أن نسمع شيئاً.

سمسم : ياهو.. ياناس.. لم يتركوا لمعلم الصنعة رزقاً. العفصة وست الأشراف الماسة والذين يستعدون للنزول إلى السوق عشرات بل مئات. صارت ضيقة، ضيق الله عليهم.

[يواصل سيره]

حميد : كيف سكتنا على مثله! أما كانوا يهدرون دم أمثاله!
ابراهيم : كان ذلك قبل أن يملأ أمثاله قصور السلاطين، وأولياء الأمر.

حميد : ينبغي أن نرور المفتي هذه الليلة.

ابراهيم : كما تشاء.

[ترتفع جلبة صبيان لا تلبث أن تتضح تدريجياً. ونرى عبد الله وقد علق كيساً في رقبته وملاه جوزاً، والأولاد يتدافعون وراءه].

عبد الله : إليكم عني. من عرف الله، بُهت ولم يتفرغ إلى الكلام.

حميد : ياسيد عبد الله..

عبد الله : إليكم عني. (إلى الأولاد) تعالوا يا أحبائي.. فأنتم رحمتي. تعالوا، وحرروني من اللّوامة، والأثمارة والسجّانة.

[يتابع طريقه ملوحاً للأولاد بكيس الجوز. بعد تردد قصير يتبعه الأولاد، وهم يغنون ويصفقون].

الأولاد : يا عبد الله.. يا مجنون. ضروب الكف، وخود الجوز. ابراهيم : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ما الذي بدّل أحوالنا على هذا النحو!

حميد : لا شك أن عيناً أصابتنا. ابراهيم : كأن زلزالاً ضرب هذه المدينة المطمئنة، فخرّبها، وأخرج خبائث بطنها. بدأت أتطير فعلاً مما تخبئه الأيام.

حميد : هذه الليلة، يجب أن نطلب من المفتي أن يتدخل قبل أن يجرفنا الخراب.

ابراهيم : نعم.. حان وقت المفتي. [تلاشى الإضاءة].

المشهد السابع

[في بيت العفصة يجلس العفصة حزناً ومسحوقاً، وبين يديه جبل عقدت في طرفه أنشطة. بحركات شاردة يحفّ الجبل بقطعة صابون كي يلين، ويصبح زلقاً] العفصة : لم يعد هناك أمل أو رجاء. آه لو أحسن الكلام.. ولكن ما جدوى الكلام إذا لم يكن هناك من يصغي!.. فقدت مكاني في عيون الناس. والذي كشفت سري من أجله، رماني وسمّاني عزة. فماذا بقي أمامي!.. هي خطوة محتومة، وعلي أن أخطوها. ماأغرب هذه الدنيا!.. إن كتمت وأخفيت، عشت وتكرمت. وإن صدقت وكشفت، نبذوك وأخرجوك منهم. لم أعرف كيف أعبّر له.. إني أشجع منه. أحبني حين كنت كذباً وهيئة، ثم ازدراني ورماني حين جئته صافياً كالبلور بلا كذب أو هيئة. هو الكذب، وهو الجين. لم يفهم الشجاعة التي تحليت بها، والعذابات التي كابدتها كي أتصالح مع نفسي، وأغدو شفافاً. لا أستطيع أن أندم.. لا أستطيع أن أتراجع، ولا أستطيع أن أتقدم. أغلقت الأبواب، وهذه الدنيا ظالمة لا يعيش فيها إلا المزور أو الكاذب. ريذهب إلى زاوية جانبية، يربط الجبل في عضاضة السقف، وتندلى الأنشطة.. يضع طاولة تحتها ويقف

عليها. يضع الأنشطة في رقبته].
العفصة : ياالله.. إني أحجل من مناداتك، ولا أعرف كيف
سألفاك. يارب وأنت العادل الرحيم.. ثبت قلبي،
وصبر أُمي، واغفر لي.
[يدفع الطاولة من تحت قدميه، فتزرد الأنشطة على
رقبته. حشرجات مخنوقة، ثم يعم صمت ثقيل،
وتتلاشى الإضاءة].

المشهد الثامن

[بيت السيد محمد الخزار. الشيخ محمد ومعه ولداه.
البكر عبد الرحمن والأصغر صفوان].
صفوان : (منفعلاً) لماذا نتحاشى الحديث في الموضوع! ومتى
يقول الأب كلمته! فاحت رائحتنا، وزقرت هذه
القحبة اسمنا وعائلتنا.
الشيخ محمد : اسكت، ولا تتكلم بلا إجازة.
صفوان : إننا لا نفعل شيئاً إلا التصقن. ألا ترى يا أبي أننا
سجناء، وأننا لا نستطيع مواجهة الناس مادامت حية!
الشيخ محمد : لا أحب اللغو يا صفوان. هل صالحت زوجتك يا عبد
الرحمن!
عبد الرحمن : فعلت ما أمرتني به يا أبي.
الشيخ محمد : اي.. الله يرضى عليك يا بني. أنا اخترتها لك، وأنا
كفلت عند أهلها حسن المعاملة. فأرجو أن تحفظ
عهدي، وأن تظل على وفاق معها.
عبد الرحمن : كان خلافاً عابراً، وأعدك ألا يتكرر يا أبي.
الشيخ محمد : أريد أن أظل سيد بيتي حتى يحين لقائي مع ربي.
عبد الرحمن : إنك السيد يا أبي.
صفوان : أتريد أن تكون سيد الغرف والحجارة، أم سيد أهل
الدار!
الشيخ محمد : لا ترهقني أيها الغلام. رأيت فيما يرى النائم يا عبد

الرحمن أن السماء تمطر حين أقبض، وأن يبدأ نورانية
تقشع الغيم عن وجه السماء حين أحمل، وأن
شجوراً لطيفاً يكثر حين أضجع في القبر. كأني الآن
أراه، وهو يحوم مسيحاً ومكبراً. أفليست تلك
إشارة..!

عبد الرحمن : نعم ياأبي.. إنها إشارة وبشارة بعد عمر طويل إن شاء
الله.

الشيخ محمد : ايه.. كانت حياتي مكابدة قاسية ومرهقة. خلقني الله
وخلق معي، في ذاتي عدوي. وأمضيت ردها من
عمري، أعاند قضائي، وأتخبط في حربي مع نفسي.
حرب رهيبة، يتواصل فيها الكر والفر. حين يغلبني،
أخضع له وأشاطره عبثه. وحين أغلبه، يخضع لي
ويشاركني صلواتي وخشوعي. كانت الحياة امتحاناً
عسيراً، وعذاباً مقيماً. ثم ألهمني الله.. أني وعدوي
من خلقه وقضائه. وأن عليّ أن أبدل الحرب مساكنة
وصحبة. فقّرت نفسي، وعرفت الرضا والسكينة.
ومازال الواحد يلبي نداء الآخر طوعاً وحباً.. لقد
جزت الامتحان، واشعر أني خفيف أمام ربي.
والآن.. وأنا أتهدأ لملاقاته، لا أريد أن اثقل خفتي
بالدم.. فما قولك يا عبد الرحمن..!

صفوان : وأنا..! لماذا لا تعبرني، ولا توجه الكلام لي!

الشيخ محمد : اسكت أنت.

صفوان : لماذا أسكت!

الشيخ محمد : لأنك ترغي كثيراً، وتدبر قليلاً. أفسدتك أمك
بالدلال.

صفوان : لماذا لا تجرني! كلفني أن أدبر أمراً.
الشيخ محمد : لن أكلفك، ولن تفعل شيئاً. ماذا قلت يا عبد
الرحمن..!

عبد الرحمن : القول لك ياأبي.

الشيخ محمد : هل تريد أن تلتطخ يدك بدمها!

عبد الرحمن : سأفعل إذا أمرتني.

صفوان : وأنا جاهز.

الشيخ محمد : أخشى أن تفضحنا بالموت أكثر مما فضحتنا بالحياة.
إنني على حافة قبوري، ولا أريد أن أحمل معي في
الكفن وزراً ودماً. يكفي أن تبرأ منها، وتركها في
ضلالها.

صفوان : والناس.. بأي وجه سنلقى الناس! عافت نفسي هذا
السجن. هي تسرح على كيفها، وأنا أتزوي خجلاً
في هذا البيت.

الشيخ محمد : هل توافقني الرأي يا عبد الرحمن!

عبد الرحمن : هذا هو الرأي الصائب. لماذا نضعف الفضيحة دون
فائدة. وأما الناس فسيعرفون أننا تبرأنا منها، وأنا لم
نشأ أن نلوث أيدينا بدمها.

الشيخ محمد : كان المنام إشارة. يريدني أن ألقاه خفيفاً.

صفوان : هذا الرأي سيجعلنا شبة على الألسنة حتى أحفاد
الأحفاد. لا.. لا بد من سفك دمها.

الشيخ محمد : أنا أعرفك يا صفوان. كنت دائماً عرق ضراط، فلا
تتبعج أمامي.

صفوان : وأنا أعرف أنك تكرهني، لأن أمني مبرّتي، وأحبنتني.

الشيخ محمد : لا أكرهك يا بني. لكن لا أحب أن تتشدد في

المشهد التاسع

[في بيت المفتي. المفتي وحميد العجلوني وابراهيم دقاق
الدودة]

حميد : فسد البلد، وتغيرت أحواله ياشيخ.
ابراهيم : لم يعد المرء يتعرف على الشام التي ألفناها. شام المحبة
والغيرة. ألمت بنا جائحة بدلت العفة فجوراً، والأمن
قلقاً وجنوناً. ألم تصلك أخبار ألماسة، وما فعلته
بالرجال! لا أدري من أين تهب علينا هذه الفوضى!
منذ حكاية النقيب تزلزلت المدينة، وانقلب عاليها
سافلها.

حميد : وامتد البغاء إلى الرجال. تراهم يتبخثرون في السوق
على عيون الناس، وليس من يستنكر. لقد أصابتنا عين
أو عُمل بنا شر.

المفتي : أعتقد أن لدي صورة وافية عما يجري.
ابراهيم : لن ينقذ المدينة إلا موقف حازم كتلك المواقف التي
عزّدتنا عليها.

حميد : هل تترث عن قصد!
المفتي : نعم.. لماذا أتريث!! لعلني أنتظر أن يسفر الشر عن
وجوهه كافة.

حميد : ونحن نقول.. أسفر الشر عن وجوهه، وبالغ في
السفور.

حضرتي، ولا أقبل أن تخالف أمري..

صفوان : إنك تقرر لنا العار، وتأمّرنا بقبوله.
الشيخ محمد : تأدب ياولد. حين يتكلم الكبار ليس عليك إلا أن
تصغي.

عبد الرحمن : عيب ياصفوان.. أتخالف رأي أيك!
الشيخ محمد : ومن الذي يخالفني! أنسيت ياولد كيف يغمى عليك
حين ترى دجاجة تذبح، أو دماً يقطر من جرح!
دللتك أمك، ولم تعلمك الأدب. قم.. لا أريدك في
حضرتي.

صفوان : (وهو يخرج) سترى ياأبي.. وسيأتيك خبري.
عبد الرحمن : أخشى أن يتهور.

الشيخ محمد : لا تشغل بالك. هو يرغي، ويتشدق لا أكثر. أفسدته
أمك رحمها الله. وما أحشاه هو ألا يبلغ مبلغ الرجال
أبدأ.

عبد الرحمن : مازال صغيراً، وستنضجه الأيام. على كلّ اسمح لي
أن أهدئه، وأن أحاطط عليه قليلاً.
الشيخ محمد : لا بأس. ولكن علمه أن يتأدب في حضرتي. هيا بنا..
حان وقت الصلاة.

عبد الرحمن : (وهو يساعد أباه على النهوض) ياالله..
[تتلاشى الإضاءة]

ابراهيم : هذا أوانك، ولن يوقف تدهور الأحوال سواك.

المفتي : حقاً.. ربما أزف الوقت كي نجمع هذا الفساد. تلك المرأة سَمَت حياتنا، وأزقت نومنا، مسّت عقولنا. تلك المرأة جسّد يسكنه إبليس. ولن تعود المدينة إلى رواقها إلا إذا هتكنا إبليس، وطهرنا البلد منه. أيها الناس.. اطردوا إبليس، لاحقوه، ارجموا. أعوذ بالله.. وأستغفر الله.. (ينهار على مقعده).

ابراهيم : هذا هو المفتي الذي نعرف. هذا هو الرجل الذي سيجابه الفوضى.

حميد : ماحالك يا شيخ! هل تشكو مرضاً!

المفتي : ذكر الشيطان أنهكني. إني مرهق، أشعر انحلالاً في جسدي.

ابراهيم : عافاك الله.. هذا تعب الانفعال والغيرة. كيف كان يمكن أن تجري أمورنا، لو لم يكرّمنا الله برجل مثلك.

المفتي : (متعباً) هل تطلبان مني أن أفتي!

ابراهيم : أنت أدري منا. ولكن أعتقد أن هذه البلبلة لا تصلحها إلا فتوى حازمة.

المفتي : إذن.. ستكون فتوى رهيبة. فتوى تهدر الدم. وأي

دم! (يتفضض، ويتكلم بشروود) سنغوص في الدم.. إن المعركة مع الشيطان مهولة، لأن للشيطان حيله

والأعيبه. في كل واحد بضعة منه. وكل واحد سيقاتل نفسه، ويذبح نفسه، ويسفك دم نفسه. إني

محموم.. وهذه الحمى لا تفارقني نهاري أو ليلي.

حميد : شفاك الله.. أتريد أن نعود في وقت آخر!

المفتي : لا.. هذه الليلة يجب أن يحسم المفتي أمره. أألمت

ملجأكم..! أألمت مفتيكم..! يجدر بي أن أألم شتاتي، وأن أقهر ضعفي، وأن أعلن حربي. نعم.. حرب ستطهرنا، وتعيد ما تخلخل من أوضاعنا إلى مقامه ومكانه. (بلهجة إعلانية) إن مفتي الديار الشامية (يتوقف) كم أحتاج إلى الصلاة..!

ابراهيم : (يخالس حميداً نظرات متحيّرة) هل فاتت شيخنا صلاة العشاء!

المفتي : أتحدث عن النوافل. أريد أن أنغمر في الصلاة، كما ينغمر المرء في بحر دافئ. وحين أتأكد من نقاء نفسي.. لا.. لن يتردد المفتي، ولن يؤجل عمل الليلة إلى الغد.. اكتبنا عني..

حميد : (يفتش في جيوبه، ويخرج دفترًا صغيراً) هذا دفتر حسابات، ولا يليق أن أكتب عليه.

[يتناول المفتي ورقاً، ويعطيه لحميد].

المفتي : خذ، واكتب.. إن مفتي الديار الشامية يهدر دم البغايا

نساءً كانوا أم رجالاً. ويخصّ بالذكر تلك البغي التي تدعى ألامسة لأنها تجاوزت كل حد، وأشاعت جواً

من الرذيلة أفسد قلوب الرجال، وحاد بهم عن الفضيلة إلى حماة الفجور والمعصية. إن مفتي الديار

الشامية يحرم أن تزين امرأة بزيبها، أو تتجمل على غرارها. إن مفتي الديار الشامية يحرم أن تسمى أي

بضاعة باسمها، وما وُجد منها يتلف.

حميد : يا شيخ..

المفتي : (يشير إليه بالسكوت) إن مفتي الديار الشامية يحرم قراءة الكتب غير الدينية، ومن وجدت لديه مثل هذه

الكتب فليحرقها، أو فليسلمها للمفتي. وقد تبين لنا أن من أسباب الانحراف والفساد قراءة هذه الكتب الشيطانية. إن مفتي الديار الشامية يحرم الغناء والرقص، وكل ما ينتسب إلى الخلاعة، أو يؤدي إليها. إن مفتي الديار الشامية يأمر المسلمين بمهاجمة الأماكن التي تصنع فيها الخمر، ويحل لهم إحراقها، وإهراق خمورها. كما يأمر بالقبض على من يشرب الخمر، وجزه إلى المحكمة الشرعية لإقامة الحد عليه. أعتقد أن هذا يكفي الآن.

حميد : (مرتباكاً) بل أخشى أنك تزيدت ياشيخ. للتجار مصالح، والناس لا تستغني عن الغناء واللهو البريء. ثم إن مسألة الخمر ليست ملحة الآن.

المفتي : هل تريد أن نواجه بعض الشر أم كله!
ابراهيم : هذا حق.. ينبغي أن نواجه الشر بكل مظاهره وتجلياته.

حميد : أقصد.. لو تدرجنا في الأمر.
المفتي : فات أوان التدرج، وفات أوان التراجع. هذه هي الفتاوى. وتستطيعان أن تنشرها على الناس منذ الليلة.

حميد : أن يصدق عليها الوالي!
المفتي : وما علاقة الوالي! الفتوى مسؤوليتي، ولن يراجع مؤمن كلامي.
ابراهيم : ومن يجرؤ على مخالفة أوامر يصدرها.. مفتي الديار الشامية؟

حميد : هل نمضي؟

المفتي : لحظة.. اعطني الورقة (يمدها له حميد) لا.. لا أريدها. تلك هي الفتاوى، واعذراني فأنا متعب.
حميد : (ناهضاً) قواك الله ياشيخ.. وممتعك بالعافية.
ابراهيم : وحياتك ياشيخ.. أزحت عن صدري غمامة ثقيلة. حين جئت، كنت متظيراً من الغد، وما يحمله. أما الآن.. فقد اطمأن بالي، وانقشعت الغمامة عن صدري. غداً تتوقف الفوضى بإذن الله، وتعود المدينة كما ألقناها. بارك الله فيك.

[يقبلان يد الشيخ، ويخرجان]

المفتي : (وحيداً) وأخيراً.. تخطيت الوسواس، واستعدت زمام أمري. وغداً ترنج المدينة لذكري وهيبتي. أوعدها بالحرب، وهاهي الحرب تنشب. كيف قبلت هذا الخور والضعف! أنا الذي برعت في مقاومة أعدائي، والمكر بحسادي.. أترك وهماً من العشق يمكر بي، ويضيعني! وما شأنك أيها الرجل بالهوى وجنونه. للهوى صبية وحمقى.. أما أنت.. فهل يحق لك أن تلبس على نفسك وهماً وهياماً! أه.. إني أستيقظ من غفلتي وفتوري. ولكن في قلبي وخزة، وفي حشاشتي أنيناً. لن أصغي إلى الأنين، ولن أبالي بوخزات القلب وهذه السالفة طويناها. الليلة، طويتها. نعم.. إني أطويها.

[يتناول سجادة الصلاة، يفرشها على الأرض، يتوقف حائراً، يبدو عليه الحصر، يتهاوى على كرسيه، ويجلس مبجلقاً في الفضاء بعينين فاترتين وخاويتين].

[تتلاشى الإضاءة].

مآربه. أعتقد أنه لم يصدر فتاويه إلا بعد أن عرف أنك مولع بالأماسة.

الوالي : حقاً.. كدت أنسى. كيف تعيش أماسة الآن..! ينبغي أن نتخذ الإجراءات التي تضمن حمايتها. يجب أن تذهب إليها، وتطمئننها. وسأرسل الدرك كي يحموا بيتها.

الخصي : لا.. لا تقع في الفخ الذي نصبه لك.

الوالي : ماذا تريد..! لن أترك الرعاع يفتكون بها.

الخصي : لا بد أن الناس تعيش اليوم حالة من الهياج والحمى. وإذا قاومت واحدة من الفتاوى دون سواها، بدوت متحيزاً، ولا يدفعك إلى المقاومة إلا غرض شخصي. وهذا قد يزيد هياج الناس، ويحقق للمفتي بغيته.

الوالي : ولِمَ هذه المواربات، ووجع الرأس! سأصدر فرماناً، يعطل الفتاوى كلها دفعة واحدة.

الخصي : وستبدو أمام الناس، وكأنك تدافع عن الفسوق والمعاصي، وتعارض إقامة حدود الدين.

الوالي : (غاضباً) أعتزف أنني لا أتمتع ببرودك وصفاء بالك. إنك تجعلني أغبطك على فقدان خصيتيك. أنت الوحيد المطمئن وسط هذه البلبلة، لا يقلقك هوى، ولا تعمي بصيرتك امرأة. قل لي.. كيف ندبر الأمر! وكيف نحمي أماسة!

الخصي : أرى ياباشا أن تؤيد الفتاوى، وتثني عليها.

الوالي : أتريد أن أرضخ لهذا الوعد! وإذا أيدت الفتاوى، فإن هياج الناس سيزيد، وستنفجر أحداث لا نعرف كيف نسيطر عليها.

المشهد العاشر

[في قصر الوالي. الوالي وخصي الحريم. يبدو الوالي في حالة هياج وانزعاج.]

الوالي : واقعته سوداء هذا المفتي. هل تخبّل!.. كيف يصدر هذه الفتاوى! أريد ولايتي مقبرة ومأمناً! ما الذي لم يحرّمه..!

الخصي : حرّم حتى الكأس التي ترؤق مساءك، وتضاعف مسراتك.

الوالي : لن يحرمني شيئاً. حفر حفرة يده، وسأطمره بها. ماذا يريد..؟! وكيف يتجاوزني بهذه الصلابة..؟

الخصي : لاشك أن لديه خططاً. وربما كانت لديه اتصالات سرية بالباب العالي. هذا الرجل ماكر جداً. قيل أن يأتي عبد الله، ويكشف لنا ملعوب السجن مبرئاً ذمته أمام الله، اكتشفت ليلتها أن الأمر مريب، وأن المفتي ذاته هو الذي دبّر هذا الأمر.

الوالي : ولماذا لم تتكلم يومها!

الخصي : وجدتك ميالاً للتخلص من قائد الدرك.

الوالي : والآن.. بعد ما فعلناه به، لا يمكن أن نطمئن له.

الخصي : انظر كيف يلقينا في دوامات مكره، ويورطنا في تنفيذ

واستكثر له البركات، وامتدح الفتاوى، واطلب منهم التريث والتأجيل.

السوالي : ليكن.
[تتلاشى الإضاءة].

الخصي : لم تدعني أتم فكرتي. تؤيد الفتاوى ثم تعلن أن تطبيقها لا يجوز أن يتم قبل أن تصدق عليها مراجع الإفتاء في عاصمة الدولة العلية.

السوالي : سنعطيه مكسباً، ونرفعه مرتبة.

الخصي : ليرتفع، وليكسب الآن. المهم من يكسب أخيراً. ستأخذ مهلة تحاول أثناءها أن تقلب عليه الخواطر لدى الباب العالي، وربما هنا في الشام أيضاً.

السوالي : هذه طريقها طويل، والإلغاء أسهل وأضمن. لأنني أخشى في الإنتظار أن يحدث هرج وشغب.

الخصي : الإلغاء يعني المواجهة. والمواجهة الآن مع هيجان الناس قد يؤدي إلى شغب أكبر.

السوالي : إن الخطر يهدد أمانة .

الخصي : إذا أبدت التأييد واقترحت التريث، فسيكون بوسعك أن تستخدم الدرك دون أن تستفز الناس، أو تعطيهم سبباً للشغب.

السوالي : أعتقد أن هذا هو الصواب!

الخصي : نعم.. وفي هذه الحالة يمكنك أن تحمي بيت أمانة دون أن تثير شبهة أو لغطاً.

السوالي : أعلم.. إن تهور وجسارة عزت كان يمكن أن يفيدانا جداً في هذا الوضع.

الخصي : المسكين.. لم يعد فيه أي خير. لطش الملعوب عقله.

السوالي : وعلى كل.. لا أستريح إليه. اذهب إلى أمانة، وهدىء روعها. ولا تنس أن تحمل الهدية معك.

الخصي : وأنت ياباشا.. أصدر أوامرك للدرك كي ينتشروا في المدينة، ثم استدع الأعيان إلى السرايا. اشكر المفتي،

عزت : نعم.. ورأس أمي إنك مخبول يارجل. نعم.. لا..
 كانت زوجته. نعم.. لا.. لم تكن زوجته. هي،
 هي.. هي ليست هي..
 عبد الله : سأكشف لك الحقيقة.
 عزت : (متفضأً ومتراجعاً كأنه لُسع) الحقيقة..! لا.. لا تقل
 الحقيقة. أين الحقيقة! ماهي الحقيقة!
 عبد الله : قبضت على نقيب الأشراف وهو يتبذل مع غانية
 مأجورة لا مع زوجته.
 عزت : وما فائدة هذا الكلام! ورأس أمي لن يصدقك أحد،
 حتى لو كنت النقيب نفسه.
 عبد الله : ألم أكن النقيب نفسه، ثم أنقذني الله من وهدتي،
 وأضاء قلبي بطرف من نوره.
 عزت : يارجل.. من أدخلك علي! هل تسايرني كي تهديني!
 وما قيمة هذه الحقيقة التي تتقرب مني بها! إذا أعلن
 الناس جميعاً أنها كانت امرأته، فماذا يصير ما تتشدد
 به الآن! إنه افتراء وضلال. أو هو الجنون.. نعم.. هل
 أنت مجنون! اذهب يارجل، ودعني بحالي. انتظر..
 تعال.. ألدريك مطرح للسر..!
 عبد الله : من عرف سره، استقل كل الأسرار.
 عزت : ألا تريد أن تعرف السر؟
 عبد الله : البوح مودة، فتكلم.
 عزت : الحقيقة.. هي ماوافق أهواء السادة، وما انقادت إليه
 العامة انقياد الأعمى وعدا ذلك لا توجد إلا
 الافتراءات والظنون.
 عبد الله : إنك تتحدث عن تلبيسات الدنيا، ولغوها. هل خفَّ

المشهد الحادي عشر

[في السجن. يُدخل السجن عبد الله إلى الزنزانة التي
 يوجد فيها قائد الدرك عزت].
 عزت : ما هذا!.. من أنت!..! إني أنتظر المفتي، ولا أريد أحداً
 سواه.
 عبد الله : غفرانك يا عزت بيك. دعني أقبّل يديك. دعني أقبّل
 رجلك.
 عزت : ما هذا يارجل! ومن أنت!..!
 عبد الله : أنا.. عبد الله.
 عزت : ومن عبد الله! وماذا تريد!
 عبد الله : لا أعرف عبد الله أكثر مما تعرفه أنت. ولكن جئت
 كي أزيح عن عاتقي وزراً ثقيلاً. جاءني هاتف في
 الليل، وأيقظني.
 عزت : هاتف ما هاتف! ماذا تعلقك يارجل!
 عبد الله : إي والله يا عزت بيك.. هاتف رهيب أيقظني من
 نومي، وقال لي.. كيف تستطيع النوم، وإنسان
 مظلوم، يتعذب في السجن بسببك. ومع بزوغ
 الشمس، ذهبت إلى الوالي، وكشفت له براءتك،
 واستحلفتة أن يعفو عنك، وأن يضعني في السجن
 بدلاً منك. ولكن الوالي لم يعبر كلامي، وعزاه إلى
 الخبل.

مقدار الحقيقة حتى تحملها الألفاظ! لو تمثلت الحقيقة رجلاً، لهلك كل من نظر إليها لفرط جمالها وحسنها ولطفها. ولبدا كل نور ظلاماً أمام بهائها.

عزت : وماهي هذه الحقيقة يارجل؟

عبد الله : معرفة وجهه، والفناء في حبه .

عزت : ماذا تخرف يارجل!.. لماذا جئت! هل أرسلك المفتي كي تهديني إلى صراط إبليس.

عبد الله : لا.. لا.. ما أرسلني إلا هاتفٍ أيقظني في باطن الليل، وامرني أن أسعى في فك ظلامتك. ومع طلوع الشمس، سعى الفقير إلى الوالي. وبذل غاية الجهد في كشف ما لحق بك من ظلم، ولكن الوالي لم يبال. فسعيت إليك كي أطلب عفوك، وأبريء ذمتي مما أصابك.

عزت : والله عال.. تضعونني في السجن، ثم تستغفرون مني. إني سجين.. ألا ترى يا رجل! أنا الذي كان يرتجف السجن حين يسمع خطواتي، غدوت سجيناً يهزأ منه السجنان والدرك والمساجين! كيف كان هذا الكيد! وكيف وقعت كالذبابة في الشرك!.. هي زوجته.. وهي ليست زوجته.. وأنا أتعفن في هذا المكان، ويتسرب عقلي قطرة قطرة.

عبد الله : لا تبتس يا صاحبي.. ما السجن إلا كسواه من الأمكنة. وهنا في هذا السجن، عرفت الإشراق وجاءتني الإشارة. إن السجن الفعلي، هو سجن النفس. ومن أدرك ظلامه وحصره، يعرف أن هذه السجون هي كالرياض وكالقصور.

عزت : وُلِّك.. ألا يكفيني ما بي! هل جئت تزئِن لي بلائي! عبد الله : كان وليي ومعلمي، حين لا يلحق به بلاء أو يصيبه عناء. ينادي ربه فيقول.. إلهي.. بعثت إلي خبزي. وما بعثت إلي بلائي، آكله معه. وكان يقول.. البلاء للأولياء كاللهب للذهب. وهو غذاء الرجال من مرتادي الوصال، ومريدي الاتصال.

عزت : أنت مجذوب يارجل!

عبد الله : ليتني ابلغ هذه المرتبة.

عزت : أفي غيبتني.. صار المجذوب رتبة!

عبد الله : إن العبد إذا تخلَّق، ثم تحقَّق، ثم جُذِب. اضمحلت ذاته، وذهبت صفاته، وتخلص من السوى. عند ذلك.. تلوح له بروق الحق بالحق، فيطلع على كل شيء، ويرى عند الله كل شيء، فيغيب بالله عن كل شيء، ولا شيء سواه.. وهذا أول المقامات.

عزت : ما هذا!.. أجنثت تزيدني خبالاً! من يحتاج إلى أورادك وتخاريفك. واحد يفسق مع عاهرة، والمفتي يبذل بالعاهرة زوجة. وأنا أضيِّع لحييتي بين الاثنين! والله سأربي بك هؤلاء السفلة. خذ جوابي.. (يبدأ بضربه، ورفسه، وعبد الله لا يريم حراكاً) هذه للمفتي.. وهذه للنقيب.. وهذه لزوجة النقيب.. وهذه للوالي.. سأسحقكم جميعاً.

[يزداد انفعال عزت كلما أمعن في الضرب، وعبد الله مستسلم بما يشبه اللذة]

عبد الله : (متمتماً) حسبي الرب من المربوبين. حسبي الخالق من المخلوقين. حسبي السائر من المستورين. حسبي القاهر

من المقهورين. حسبي الذي هو حسبي. حسبي من
لم يزل حسبي.

عزت : (يصل ذروة الغضب، ويتحول صوته كالخوار العمي..
أليس فيك عرق رجولة! أنت حجر، أم شجر، أم
رمة!

عبد الله : من توكل، كان كالميت في يدي الغاسل، يقلبه
كيفما شاء. يارب.. وعزتك وجلالك. لو قطعتي
إرباً إرباً، وصبيت علي العذاب صباً، ما زددت لك إلا
حياً.

عزت : (وهو ينطأ من الغيظ، ويرفس عبد الله رفسة تقلبه،
وترميه نحو الباب) ياناس.. ياهو.. من هذا المخبول الذي
أدخلتموه علي..!

[يصل السجان مهرولاً]

السجان : ماهذه الضجة! خزاك الله.. ماذا فعلت بالشريف عبد
الله! وأنت ياسيد عبد الله.. كيف تخاطر، وتدخل
علي مجنون!

عزت : ومن هذا..!

السجان : لاريب أنك أجرت فوقاني. هذا السيد عبد الله
نقيب الأشراف.

عبد الله : (ينهض مذهولاً ومأخوذاً) لقد بلّغت. إن ضوءك
يهرنني. إني أسيل كشمة نحيلة، وأتلاشى فيك.
أسيل علي ستور أنوارك، وغطني عما سواك. بعد
الوصال، ماعاد للعاشق بغية إلا الفناء. إني أفنى، إني
أفنى.

[يخرج من السجن فيما يراقبه الأخران مبهوتين].

عزت : كلهم عرصات.. كلهم أوغاد. رموني بهذه البلية،
واختفوا.. وهذا جُنَّ.. يا فرحي.. يا فرحي.. جنون..
كله جنون.. ورأس أمي سيعمّ الجنون.

السجان : (وهو يغلّق الباب) إي خراس.. أنت من يحكي عن
الجنون! اشتغل بنفسك، وفتش عن عقلك.

عزت : هي ليست هي. وأنا العاقل بينكم.

[يوجه له السجان حركة بذية، ويتركه]

السجان : لا حول ولا قوة إلا بالله. ماذا غير حال السيد
النقيب! وأين اختفي!

عبد الله : (يتأهي صوته مبتعداً) هذا السجن مبارك. فيه جاءني
الإشارة. وفيه أضاءتني الرؤية. بعد الوصال ماعاد
للعاشق بغية إلا الفناء. ما أحلى الفناء فيك.. ما
أحلى...

[يتلاشى الصوت والضوء].

إنه سلك درب الصوفية على غير طريقة تُعرف أو شيخ يرشده. وفاتحه اخوته في أرزاقه، فقال لهم: أتريدون أن تتقاسموا هماً ومربضاً في النار! خذوا ما شئتم واخرجوا عني. من عرفه لا يشغله عنه شيء.

وفي هذه الأيام أيضاً فشا الفسوق، وماعاد الناس يستخفون. وخاصة بعدما كان من السيدة الشريفة زوجة النقيب التي لحقت بنات الخطأ، وصار لها لمعان وصيت.

وما كنا نعرف مآل هذه الأحوال لولا أن المفتي، أعزّه الله، تداركنا بفتاواه. وقد أحدثت هذه الفتاوى التي تقطع دابر الفجور، وتستأصل الشر من الجذور رجّة عظيمة بين أهل الشام. فغالى البعض في الحماسة، وغالى البعض في الإنكار. وكادت تحدث فتنة لولا أن الوالي اجتمع بالأعيان، واستمهل تنفيذ الفتاوى رغم موافقته عليها. وما أثار دهشة الحضور، هو تخلف المفتي عن هذا الاجتماع. ولم نعرف السبب إلا أن يكون ما لاح عليه من أعراض السقم يوم زرنانه، عافاه الله وشفاه.

ويقول الفقير.. إن هذه الفتاوى على ضرورتها تجاوزت قليلاً حدود الاعتدال.

ابراهيم : وعليك أن تضيف.. وما زلنا على الحال نترقب ما تأتي به الأيام.

حميد : أتعلم.. كنت أتوقع البارحة مقتلها.

ابراهيم : أتظن أن مقتلها سهل إلى هذا الحد! صار وراءها وال وحزب من الرجال.

المشهد الثاني عشر

[في السوق. حميد العجلوني و ابراهيم دقاق الدودة. يحمل حميد كراسه، يلوح بها لابراهيم].

ابراهيم : ماذا دوتت عن أحوالنا؟

حميد : سأقرأ لك ما دوتت. (يفتح كراسه) وفي هذه الأيام توات علي الشام هزات، ما تعودنا عليها، ولا نعم لها مثيلاً في سالف الزمان.

قبل أيام شقق العفصة نفسه في داره بعد أن كشف الله سرّه، وتبين أنه علق، يُلاط به، وليس لديه من الرجولة إلا صورتها. ومن غرائب الأمور أن المذكور كان يحسب على الزكزية، وبعد رجلاً بين الرجال. وقد كانت جنازته جرسه لم يحدث مثلها من قبل. اجتمع الأراذل والسفهاء، وراحوا يهزجون وراء الميت أهازيج سفیهة وبذیة، ولم یقدروا للموت حرمة. والفقير یقول.. إن حرمة الموت ضرورية، حتى ولو كان الميت لا يستحق الرحمة. وبعد نهاية الجرسه، ألقوه في حفرة دون أن يصلي عليه أحد. ولم يذرف أحد دمعاً إلا أمه العجوز التي ظلت في البيت تنوح.

وفي هذه الأيام أصابت السيد عبد الله الذي كان نقيب الأشراف جذبة قوية، وتسربل بمرقعة زرية، وصار يطوف في الشوارع طالباً اللوم والزراية به. وقيل

حميد : يدي على رأسك يا ابراهيم. ألا يغريك أحياناً أن تزورها!

ابراهيم : (متفضلاً) فضّ هذه السيرة يا حميد.

حميد : حلفتك، فأجبنني.

ابراهيم : أف.. ماذا أقول لك! والله هي التي تؤرق ليالي، وغوايتها هي التي تملأ صدري توجساً وقلقاً. إني خائف من نفسي.

حميد : الحال من بعضه يا ابراهيم. تحكى عنها أفانين عجيبة.

ابراهيم : أتخاف نفسك أيضاً!

حميد : إني مبلىل بالغواية. وحين أتخيلها، يتسارع دمي وتلاحق أنفاسي.

ابراهيم : ما أغرب هذه الدنيا.. وكم هو هش مصير الإنسان فيها! أين الشاي..!

حميد : (صائحاً إلى الداخل) أين الشاي يا مقصوف الرقبة! [يظهر الولد حاملاً الشاي].

الولد : هاهو الشاي يامعلمي. شاي ألماسة مخمّر، ومعطر.

حميد : اخرس يا ولد.

الولد : حاضر.. ياعيني على.. ياعيني على الشاي. [تلاشى الإضاءة].

المشهد الثالث عشر

[في بيت ألماسة. غرفة مفروشة بطريقة تنم عن الذوق. سجاد وفرش وثيرة ومساند ومخدات أنيقة بالإضافة إلى أريكتين من الخشب المصّدف ومنضدة واطئة من الخشب نفسه. ألماسة وتبدو مزدهرة الوجه والجسد، لطيفة الزينة، ترتدي ثوباً بديع الطراز، يدي تفاصيل جسدها دون ابتذال. وردة التي تظهر في هيئة شعناء وعدوانية. عباس يحتجز وردة، ويحاول تهدئتها].

عباس : ليس الوقت مناسباً يا وردة.

وردة : وهل بقيت أوقات مناسبة يا كئاس الأدبار!

عباس : الزمي حدك، وإلا ريمتك خارج الدار.

وردة : أنتقوى علي..! مرّت على هذا البطن شوارب أغلظ من شواربك. وما شأنك أنت! لن أخرج قبل أن أصفي حسابي معك يا ألماسة.

ألماسة : اهدأ يا أبا الفهد. ماذا تريدان أن تصفّي يا وردة!

وردة : ألا تعرفين..! هل تلاحقونني كاللجنة حتى الممات! ماذا فعلت لكم، وم تتنقمون؟ لم أكد أخلص من أهلك حتى برزت لي كضربة الغفلة، وأنا البلهاء.. وقعت في فخك. هل تذكرين أنني معلمتك، وأن لي عليك حق الطاعة!

ألماسة : اسمعي ياوردة.. لن يفيدنا اللوم أو الغضب. السكين فوق عنقي وعنقك، ولا حيلة لي فيما حدث. فماذا تريد أن أفعل!

وردة : بلا لف أو دوران. أريد أن تفرقنا برائحة طيبة. اغلقي هذا البيت، وعودي إلى أهلك، أو زوجك لا أدري.. ولكن دعينا بحالنا. إذا خرجت من الكار، ستهدأ الزوبعة وسيزول عنا الخطر.

عباس : هل أكنسها!

وردة : اذهب، واكنس دبر أمك.

عباس : تأدي يا امرأة، وإلا عجتك.

ألماسة : توقفا..

وردة : هل تذكرين!. وعدت أن تحفظي حرمة معلمتك، وأن تطيعيها.

ألماسة : إني أحفظ حرمتك ياوردة، ولم يخطر لي أبداً أن أنافسك أو أسبب لك أذى. وتذكرين أنني أردت أن تظلي معي.

وردة : وماذا تفعل النواصة مع المصباح! حتى خادمتي بهرها الضوء، ولحقت بك. لا.. فضلت الابتعاد كيلا ينطفئ ذكري نهائياً.

ألماسة : فما ذنبي إذن!

وردة : أثرت هيجاناً لا يحتمله هذا الكار، ولا تحتمله هذه المدينة. ولذا أطلب منك ومعني كل البنات أن تخرجي منا.

ألماسة : إنك تطلين المستحيل. لا أستطيع أن أتراجع.

وردة : أتعرضين كل البنات للذبح من أجل نزوتك!

ألماسة : لا أنكر هذا الفضل، ولا أعرف ماالذي يغضبك الآن!

وردة : اسمعوا ياناس.. ولا تعرف ماالذي يغضبني! سرقت عزي، وأطفأت ضوئي، وها أنت تسببين بهدر دمي. ومع هذا تتصنعين براءة يوسف، وتساألين لماذا أنا غاضبة!

ألماسة : وما حيلتي! أليست السكين فوق عنقي أيضاً!

وردة : أنت البلاء كله. أكسدت سوقنا، وهيجت الدنيا علينا، وابحت دمننا. لعن الله الساعة التي عرفتك بها. من كان يصدّق أن تلك المرأة اللطيفة التي جاءتني متوسلة، تختزن في جسدها فنون ومجون ألف من العاهرات! أتذكرين.. لم أكد أبداً في تدرييك حتى تلاًأت الأضواء فوقك، وخفتت أنوارى..

عباس : قولني إن الحسد ينهشك.

وردة : نعم إن الحسد ينهشني. أينبغي أن يظلوا أكابر حتى في البغاء! أصابت الست الشريفة نزوة، فخطر لها أن تنافسنا في الكار. ودخول مثلها لا يتم بالمران والشقاء، وإنما بعراضة تهز المدينة وتسلب عقول الناس. لقد أفسدت حياتنا، ودمرت الهناءة المنعّصة التي كنا نحيا فيها. ماذا أفعل الآن! أين أذهب، وكيف أنجو! قولني ياست الأشراف.. أشيري علينا.. ماذا نفعل!

عباس : إننا ننتظر ضيقاً يا وردة.

وردة : دع القوادة الآن.. أعرف أن زبائنكم كثر، ولكن حياتنا أهم من متعة زبونك.

ألماسة : إنني أعرض نفسي. والمطلوب هو رأسي قبل رؤوسكن.

وردة : لولاك لما صدرت الفتوى، فأخرجني منا كي تهدأ الضجة وتندبر أمورنا.

ألماسة : لا سبيل إلى الخروج. وحدث الفتوى بيننا، وجمعتنا في مصير واحد. وإن نتضامن الآن خير لنا من أن نتنافر، وتنهش كل منا الأخرى.

وردة : لا نريدك بيننا. إنك بلية.. إنك الموت. لا نريد أن نموت من أجل لهوك ونزواتك. إذا لم تخرجني، سنكون حلقاً عليك.

عباس : أجمت تهديدين يابنت الأفاعي!

وردة : نعم إنني أهدد، ولن نترك دماءنا تهدر كرمي لعينيها.

ألماسة : تكثر التهديدات حولنا يا أبا الفهد.

[تدخل الخادمة مسرعة]

الخادمة : سيدتي.. وصل المفتي.

وردة : (باندهاش ورعب) المفتي..!

ألماسة : دعيه يتفضل. دعي الحمق والغضب يا وردة، وغداً سنواصل الحديث.

عباس : ألا أبقى! أخشى.

ألماسة : لا.. لا أريد أن يبقى أحد هنا. سأستقبل المفتي وحدي.

[عباس يدفع وردة أمامه فيما تتلأأ ذاهلة. يدخل المفتي.

وجهه شاحب، وهيته توحى بالمرض. تسرع وردة، وتلقف يده، وتقبلها].

وردة : أنا في عرضك يا شيخ. إنني أتوب. أريد أن أتوب. أقسم بالله إنني أتوب.

ألماسة : اذهبي الآن يا وردة.

عباس : (وهو يجرها، ويخرج بها من الغرفة) يا الله..

ألماسة : شرفت، ونورت يا شيخ.

المفتي : أهدرت دمك يا ألماسة.

ألماسة : وهل جئت تنفذ فتواك بيديك!

المفتي : أنفذ فتواي..! هيهات.. اكتشفت أنني أهدر دم نفسي حين تجرأ لساني، وأهدر دمك.

ألماسة : أتريد أن تخفف عني!

المفتي : إنني أتكلم من القلب. لم يعد بوسعي أن أخفي النار التي تتوقد في صدري. هذا شيء لم أعرفه من قبل. إنه مرض لا يشبه ما يعترى الأبدان من الأمراض. وأنا لا أعرف كيف أقوله.. لا أعرف كيف أعبر عنه.

ألماسة : هذا غريب. تفتي بقتلي، ثم تداعبني بالحديث عن المرض والنار التي تتوقد في الصدر. ماذا تريد، وعم تبحث؟

المفتي : ترفقي بي يا ألماسة، فأنا سقيم إلى حد التلف. أنت أشد محنة واجهتها في حياتي. بل أنت المحنة ولن تكون بعدك محنة إلا الموت. لا أعلم كيف مكرت بي الأقدار، وأين كانت تختبئ هذه اللواعج واليران! منذ التقينا وأنا أحاول الفرار. ولكن هل يفتر المرء من خفقات قلبه ورعشات روحه. ضوى جسدي، وأسقمني صراعي مع نفسي. أعترف لك.. أنني لم أصدر الفتوى، إلا لكي أقهر هذه النفس،

وأستعيد إرادتي المهذوبة. لم أعرف من قبل جيشان
الهوى، وصبوات الشباب. لم أجرب الحب، وما
حسبت أني سأجربه.

: في عمرك هذا.. ولم تعرف الحب!

: كنت أظن أن الحب فساد ابتكره المجان والبطالون.

: ولم تراودك أشواق!

: أمضيت عمري في ترتيب سيرتي ونفوذتي، وكانت
تلك هي أشواقي التي تغذي عزيمتي.

: والآن.. ألا تعتقد أن ما تشعر به ليس إلا فضولاً
وتخيلاً!

: ليته كان تخيلاً.. إني مريض يذوي وجداً وشوقاً.

تداعى العقل والعزم. ولم يبقَ إلا هذا الهوى الذي
يحرقتني، ويذهلني عن نفسي. لا أعرف لغة العشق،
ولم أتدرب عليها. إني أحبك يا ألماسة. إني أسيرك
ولك أن تفعل بي ما تشائين.

: والفتوى!

: سألغيتها. سأللم ما بقي من عزمي، وأعلن فتوى أخيرة
تبطل كل الفتاوى.

: أتملك الشجاعة على مواجهة الناس، وإبطال الفتوى!

: بعد أن تجرأت على نفسي لم يعد هناك ما يخيفني أو
يحبط جرأتي. حين غلبني الوجد وقررت المجيء
إليك، أحرقت سفني ورائي. إن في الآن قوة العاشقين
واليائسين معاً.

: ها نحن نلتقي في الهاوية ووراءها. (تضع الشيخ
على الفرش البسوطه، وترتب له المساند والوسائد)

استرح ياشيخ، واهداً. لقد اجتزت مفازة وعرة،
وأنجزت رحلة عسيرة. كيف نفذت إليك الغواية!
وكيف تبدلت الطمأنينة، قلقاً ووحشة؟

: ومن يدري كيف تخادعنا الأقدار، أو كيف نخادع
أنفسنا..! ما كنت أظنه طمأنينة لم يكن إلا حجاباً
يستر الأهواء المقموعة، والأشواق المحبوسة. كان
الوجد يتخمر، ويفور في الدنان المسدودة. حتى لاح
ضوءك، فانزاح الحجاب وتدفق الهوى والشوق
والوجد كنهر عظيم أفلت بعد انحباس. وحالي يا
ألماسة هي حال رجل ضعيف، ينجرف ويتلاطم في
عباب هذا النهر العظيم.

: من كان يظن أن خروجاً على المؤلف يمكن أن يخلق
كل هذه الفوضى! ماذا تأمل أن أجيبك يا قاسم؟

: هل يستفتي السيد خادمه! إني أطمع بالكثير، ولكنني
أفنع بما تسخو به نفسك. يكفيني قرب أو التفات أو
ظل. وأعتقد أن هذا العطش الذي يحرق جوفي لن
يُروى أبداً الدهر.

: أتقبل بعطائي ولو كان زهيداً!

: إني في يدك وليس لي خيار.

: مازلت في التجربة يا قاسم. لا أريد أن أتخاذل أو
أنكص. أعرف أنني خاسرة، وأن هذه الصبوة
مستحيلة في بلد كل الناس فيها عبيد ومساجين.
ولكن مازلت أرغب أن أكون بحراً لا بركة أسنة. لا
أريد أن يملكني أحد، وليتني لا أملك أحداً. الكل
يريد أن يضع ختمه علي، وأنا أريد. أن أظل طليقة بلا

المفتي

ألماسة

المفتي

ألماسة

المفتي

ألماسة

أختام. لم أجن إلا تفاهات ومبازل. نعم.. إني خاسرة، ولعلي لم أعرف كيف أميّز أشواقِي. ولكن لن أراجع، وسأظل أطارد هذا الحلم.. الحلم بأن أكون بحراً لا يحتجز، ولا يفسد ماؤه.

المفتي

: ما أشد نأيك، وكلما ازددت نأياً، ازددت هياماً. ليس حباً هذا الذي يطلب أجراً. ستكون اللفتة فيضاً، والبسمة سخاءً، وهذا القرب عطاءً لا بغية لي وراءه. عدّيني بين المنذورين لك، وقلّبي ما تبقى من عمري على هواك. ألا يتحمل البحر غريقاً يخبط في مائه وموجه!

ألماسة

: نعم.. ولن يدعك البحر تغرق قبل أن تذوق مباهجه، وربما حنانه. ودّع الموادع الآن، وانزع هذه الأثقال عنك. ألا تريد أن تخف وتطفو..!

المفتي

: ماذا أنزع!

ألماسة

: هذه العمامة، وهذه الجبة. (يتردد المفتي، فتساعده ألماسة في خلع ثيابه) نعم.. اخلعها. انظر إلى جسدي. إنه كاللحد الذي يدفن وهج الحياة، وفورة الرغبة. ارفع الصفائح، وانيش هذا القبر. سنحتفل الليلة، وسنبعث الحياة من اللحد. (تصفق يديها، فتدخل الخادمة) هاتي لوازم الفرح.

الخادمة

: حاضر يا سيدتي.

ألماسة

: الليلة سأرقص لك. سأدع جسدي يتفتح، ويتدفق. سأريك كيف يطير الجسد. كيف يتسع، ويفيض فيغدو بحراً.

المفتي

: إن أعضائي تذوب، وتسيل. إن قلبي يكاد يفلت من

صدرِي. هذا هو الفناء. إني أفنى فيك، وإني أولد جديداً في فنائي.

[تدخل عوادة تحمل عوداً، وتأخذ مكانها ثم تبدأ في دوزنة العود. تلحقها الخادمة بصينية عليها شراب وطعام. تدريجياً تنتظم ضربات العود في نغمات إيقاعية. تنهض ألماسة، وتتهيا للرقص بينما تتلاشى الإضاءة].

عن الحب!

الخادم : (وهو يضربها على عجيزتها) نحن نعيش الحب، فما حاجتنا إلى الكلام! ولكن لم تقولي لي.. لماذا تبخرين الغرفة!

الخادمة : مرّت علينا بصّارة. قالت إن المدينة مسكونة، وأن هذه الأحداث الغريبة هي من فعال أشرار الجن. وقالت إن دمّاً سيراك، وأن الهواء الأصفر سيأتي قبل أن يجف الدم.

الخادم : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. بسم الله الرحمن الرحيم..

الخادمة : نصحت المرأة أن نبخر البيوت كل ليلة.

الخادم : (وهو ينهض) أستغفر الله العظيم.. هيا نبخره معاً. [يسيران في أرجاء الغرفة، وهما يخران الزوايا والأثاث]

الخادم : كنت أعرف تعويذة.. نعم.. نعم.. بسم الله الرحمن الرحيم. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. أيها الجن.. إن كنتم من المسلمين الصالحين، فالبيت لكم. وإن كنتم من الكافرين، أخزاكم الرحمن وابعدكم.

الخادمة : قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق.

الخادم : أعوذ برب الفلق من شر ما خلق. بخريني.. بخريني. (تدور بالمبخرة حوله) والآن.. هاتي كي أبخرك. (يدور بالمبخرة حولها ثم يرفع ذيل فستانها، ويقرب المبخرة من فخذيها) دعي البخور يتغلغل في جسدي كله.

الخادمة : يكفي.. دوختني الرائحة.

المشهد الرابع عشر

[الخادم والخادمة في غرفة متواضعة. يجلس الخادم على فراش ممدود على الأرض. بينما تشغل الخادمة في تحضير مجمرة بخور].

الخادمة : أبطل المفتي فتواه، ووفى بوعد.

الخادم : المعتز.. وهل بقيت له كلمة حتى يفتي أو يبطل!

الخادمة : لو رأيته.. كان كالميت بين يديها. ضائع اللب، مسلوب العزيمة. كنت أسمع أن الحب قتال. ولكن لم أصدق حتى رأيت المفتي، وعانيت أحواله.

الخادم : مهما أوغل المفتي في العشق، فإنه لن يصل إلى مرتبة سيدنا عبد الله. أحياناً أخشى أن يفارق الحياة من كثرة التوسل والبكاء.

الخادمة : ولكن عشق السيد عبد الله فيه هوسة.

الخادم : لعلها هوسة الأولياء. إنه مذهول بربه. يناديه كما ينادي معشوقاً، جماله يعمي الأبصار. إذا أحس إغراضاً، قتلته الوحشة وفاضت دموعه. وإذا لمس قبولاً، هزه الطرب وفاض بالنور وجهه. وفي الحالين هو ذاهل عن الدنيا وما فيها.

الخادمة : هذا حال المفتي أيضاً. إنه يحب ألماسة حب العابدين. ناجاها كما ينجي الإنسان ربه، وقال لها كلاماً يفتت الصخر الجلود. لماذا لا تقول لي كلاماً حلواً

المشهد الخامس عشر

[في زاوية السوق. عبdo وعباس].

- عبdo : ألا تشعر بالخزي يا أبا الفهد!
- عباس : ولمّ الخزي..! لا أسمح لك..
- عبdo : لم أقصد إهانتك. ولكن هل يليق بك ياسيد الرجال، هذا العمل الذي تقوم به!
- عباس : وماله هذا العمل! الأفضل أن تشغل بسيدك. ألم تعرف أن المفتي نفسه جاء، وزحف تحت كندرتها.
- عبdo : لا تحدثني عن المفتي. إن ذكره يثير غضبي وتقززي. لا.. لم يعد المفتي شيئاً بالنسبة لي.
- عباس : هل استغنى عن خدماتك!
- عبdo : هو يستغني عن خدماتي..! أنا الذي تركته، ولم أعد أطيق رؤيته بعد تلك المسخرة.
- عباس : ماذا تريد إذن!
- عبdo : اصغ إلي يا عباس.. إن أكابر البلد فسدت أحوالهم، وانحطت مقاماتهم. وهم لم يكونوا أكابر إلا على أكتافنا. قبضاتنا، وأذرعنا القوية هي التي كانت تسند المقامات، وتوفر الطاعة. نحن الأزلام، واصحاب الخيوانات الأعمدة التي يقوم عليها البناء. والآن.. انظر.. بعد أن تفسخ الأكابر وفاحت روائحهم، لن يحفظ النظام ويحمي القيم سوانا.

- الخادم : يكفي ... دوّختني المشاهد المبخرة.
- [يضع المجرمة جانبا، ويسقطان على الفراش].
- الخادم : أتريدين حديث الحب؟
- الخادمة : وهل تحسنه؟
- الخادم : اسمعي إذن. إن لحمي يحب لحمك، ودمي يحب دمك، وأنت نصفني وأنا نصفك، وليس لدي مزيد.
- الخادمة : لا أطلب أكثر. أنا نصفك وأنت نصفني.
- الخادم : أليس هذا هو الحب؟
- الخادمة : هذا هو.. مادام يكفيننا ويسعدنا.
- [تتلاشى الإضاءة].

عباس : سأفكر في الأمر.
عبدو : فكر في الأمر، ولا تخذلني. لن يحفظ القيم، ويحمي النظام سوانا.
عباس : لعنا نلتقي قريباً.
عبدو : هل أوصيك بالكتمان!
عباس : أتريد إهانتني!
عبدو : معاذ الله.. اعتبرها زلة لسان.
عباس : لا عليك..
عبدو : هل نلتقي غداً!
عباس : لا أدري.. دعني على راحتني. سأجذك حين أقرر.
عبدو : لا تقلبها كثيراً. وتذكر أنني أنتظر.
[يفترقان. وتلاشى الإضاءة]

عباس : لا تؤاخذني.. هذا كلام غريب، ولا أعرف إلام ترمي!
عبدو : ما أرمي إليه واضح. إذا لم نوقف تدهور الأحوال، فإن البلد ستزلق إلى الإنحلال والفوضى. لن يُحترم مقام، ولن تُقدَّر الرجولة. وسينهار البناء علينا جميعاً.
عباس : إنك تخوض في أمور خطيرة.
عبدو : إني أخوض في أمور خطيرة، لأن الوضع خطير يا أبا الفهد.
عباس : وماذا تقترح!
عبدو : أن نشكل أخوة من الرجال، كي نحفظ الأمن والنظام، ونطبق الفتاوى التي أصدرها المفتي قبل سقوطه، وانحطاط أمره.
عباس : والأكابر!
عبدو : سنكشف سترهم، ونجعلهم واجهات بلا حول وبلا طول. إننا الرجال يا أبا الفهد.. والبلد يحتاج الآن إلى رجولة الرجال. ينبغي أن نوقف الفساد، وأن نعيد للنظام هيئته. وأنا واثق أن الوالي لن يمانع، وأن الدولة العلية ذاتها قد تبارك مبادرتنا.
عباس : هل فاتحت آخرين بالأمر!
عبدو : تعرف أنني أحبك. وأتمنى أن نقود معاً هذه المبادرة.
عباس : إنك تأخذني على غرة. هذا عرض يحتاج إلى تفكير. ولا تنس أنني عاهدت ألبسة على الإخلاص، ولا أريد أن يصيبها أذى.
عبدو : دعنا من التفاصيل. إننا نغرق في الميوعة يا أبا الفهد. وعلينا نحن أن نعيد للرجولة حقها وكلمتها.

أماسة : من..!
 صفوان : ألا تريدان رؤيتي يا أخت!
 أماسة : صفوان..!
 صفوان : نعم.. أخوك وابن أملك صفوان.
 الخادمة : سيدتي.. هل أبحث عن أبي الفهد!
 أماسة : لا.. دعيني مع أخي.
 الخادمة : سأبقى إلى جانبك.
 أماسة : لا.. لا.. اتركيها. (تخرج الخادمة) نعم يا صفوان.. أية
 لفظة كريمة جاءت بك!
 صفوان : جاءت بي الحمية يا أخت.
 أماسة : هل أوفدك الوالد!
 صفوان : لا.. لا يعتقد الوالد أنني جدير بهذه الوفاة. جاء بي
 الغضب، وثقل العار بالأماسة.
 [يمتشق من جيبه خنجرًا، ويرفعه في الهواء].
 أماسة : أتريد أن تقتلني يا صفوان!
 صفوان : هذا العار لا يظهره إلا الدم.
 أماسة : أعرفك رقيقًا، تنفر من الدم.
 صفوان : وستعرفيني الآن رجلاً يسفك الدم.
 أماسة : أود لو تجنب نفسك هذا العناء يا صفوان. لن تستطيع
 قتلي.
 صفوان : (هائجاً) إنك تتحدثين كأبي. شحذت عزمي دهرًا،
 وراقبت هذا البيت أيامًا. وسترين الآن أنني أستطيع.
 أماسة : ليس هذا ما أعنيه.
 صفوان : وماذا تعنين إذن..؟

المشهد السادس عشر

[في بيت أماسة. تجلس الماسة ساهمة ومعها الخادمة].
 الخادمة : ألم يتأخر أبو الفهد!
 أماسة : وماذا يهم..
 الخادمة : حين يغيب أبو الفهد عن البيت، تركبني الهواجس
 وأشعر بالخوف.
 أماسة : أتخافين علي..!
 الخادمة : جعلني الله فداءك.. لا أدري.. إنني أتوجس حين
 يغيب عن البيت.
 أماسة : دعينا من التوجس والخوف، وحدثيني عنك.
 الخادمة : وماذا أحدثك يا سيدتي!
 أماسة : هل أنت سعيدة مع زوجك؟
 الخادمة : إنني أخجل ياسيدتي أن أقول.. إن قلبي لا يحتمل
 مزيداً من السعادة. طبعاً لولا نعمتك علي..
 أماسة : (مقاطعة) أتجيبه..!
 الخادمة : وهو يجنبي. لا يعرف كيف يزيّن الكلام. ولكن حين
 يقول لي.. أنت نصفني وأنا نصفك، أشعر أن الدنيا لا
 تسعني وأني أريد أن أظل في حضنه إلى الأبد.
 أماسة : إنني أعبطك.
 الخادمة : سيدتي تغبطني..!
 [يقتحم صفوان الباب بعنف، ويدخل].

المشهد السابع عشر

[في السوق. حميد و ابراهيم].
: **حميد** وهاجت المدينة حين شاع فيها النبأ. وخيم على الناس تطير ووجوم. أما المفتي الذي أعفى ، واستعفى من منصبه، فقد شق ثيابه، وأطلق صيحة مروعة، ثم لزم بيته، وأقسم ألا يذوق طعاماً أو شرباً حتى يأخذ الله أمانته وانفراط عقد الأمان، وماعد أحد يعرف ما يخبيء لنا الزمان. أتبكي يا ابراهيم..?
: **ابراهيم** إني أبكي، ولا أدري لماذا!
: **حميد** على كل، انتهت السالفة.
: **ابراهيم** أو لعلها بدأت.
[يدخل عبد الله عابراً السوق].
: **عبد الله** أنا هو.. وهو أنا. غطاني بنوره، فحجب عني الخلائق كلها. ثم سألتني: ماذا تريد! قلت: أريد أن لا أريد.
قال: قد أعطيناك. أنا هو.. وهو أنا. سبحاني.. سبحاني.. ما أعظم شأنني! الله.. الله.. الله..
[يختفي وهو يردد كلمة.. الله..
وتلاشى الإضاءة ببطء].

ألماسة : أنا يا صفوان حكاية، والحكاية لا تقتل. أنا وسواس وشوق وغواية، والحناجر لا تستطيع أن تقتل الوسواس والشوق والغواية.
صفوان : (يقترّب منها، فلا تتراجع. يتردد لحظات) لا.. لا تجرّج عزيمتك في الكلام. أعمد خنجرك. خذي يا أخت.
[يغمد الخنجر في صدر ألماسة بينما يترامقان بنظرة غريبة].
ألماسة : (وهي تتداعي) آه يا أخي.. لم تفعل شيئاً. إن حكايتي ستزدهر الآن كبساتين الغوطة بعد شتاء ماطر. إن ألماسة تكبر وتنتشر. إنها تنتشر مع الخواطر والوساوس والحكايات. حكايات.. حكا..
صفوان : (يصحو من بهوته) قتلتها.. بخنجري هذا قتلتها.. إني رجل.. إني رجل.. انظر يا أبي.. إني الرجل بينكم.. إني الرجل بينكم.
[يخرج من البيت مبهوراً، وهو يكرر العبارة. تدخل الخادمة، وحين ترى ألماسة تطلق صيحة رعب].
الخادمة : (مولولة بلوعة) قتلوا ألماسة.. قتلوا الألماسة.
[تلاشى الإضاءة].